المكتبة الثقافية

بناة القاهرة

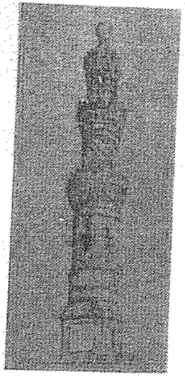
في ألف عام

تأليف

الدكتور عبد الرحمن زكى

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٦

بسم الله الرحمن الرحيم



مئذنة مسجد قايتباى

مقــدمة

تتميز القاهرة كمدينة تاريخية عظمى بتراثها الفكرى الدينى والعلمى ، كما أنها تتميز أيضا بطائفة من العمــائر الجليلة التى تعكس تطور العمارة الاسلامية فى ألف وثلاثمائة سنة على أقل تقدير • ويشبه هذا التطور البنائى متحفا للعمارة عرضت فى ردهاته عمائر كل مرحلة من مراحل التقدم • فان القاهرة تتميز وحدها بين مدن العالم الاسلامى بهــذه الميزة • تشاهد فى أحيائها القديمة حلقة متصلة من الأساليب

المعمارية تتجلى فى مبانيهـــا الدينية : كالمساجد والزوايا والمدارس الدينية والتكايا ٠ ومبانيها المدنية : كالقصـــور والدور والحمامات والأسبلة وقناطر المياه ومبانيها الحربية : كالقلاع والأسوار والأبواب ، فضلا عن الوكالات والخانات والأسواق والقيساريات ٠

وأتقدم للقارىء الكريم فى هذا الكتيب بقصـــة تاريخ القاهرة المعمارى ممثلا فى أنبل مبانيها التى أقامها طائفـة جليلة من أسامى بناتها ، اتصفوا على الاقل بحسن الذوق وبعد النظر ٠٠ منذ وضع القائد جوهر الصقلى اللبنة الأولى فى أسوارها وفى جامعها الازهر ، وفى قصور خلفائها ٠٠ حتى بناة القاهرة الحديثة ، موضحا ذلك بالرسوم كلمـــا كان ذلك فى الامكان ٠

وأسأل الله أن أكون قد وفقت ٠٠٠

عبد الرحمن زكى

الفصل الأول

بُناة القاهرة

لا شك أنه يتعذر علينا بعد مضى ألف سنة على تأسيس القاهرة ، أن نقف على أسـماء جميع أفراد طوائف الحرف المختلفة الذين ساهموا فى بناء القاهرة ، من حجارين وبنائين وملاطين ونقاشين ومزخرفين ، ورخامين ومبلطين ‥ وغيرهم ممن شاركوا مع هؤلاء من حمالين وعاملين ، وسقائين ، فضلا عن آلاف المعماريين والمهندسين والمخططين الذين أجهدوا قرائحهم فى خلال الألف عام ليجعلوا من مدينة القاهرة عاصمة لأفريقيا ومركزا رئيسيا للحضارة الاسلامية ومنارا للعلم والمعرفة ‥ هذا أمر من المحال تحقيقه ،ولذلك فما علينا الا أن نختار من هؤلاء البناة العظام الذين حفظ التاريخ العربى أسماءهم ، كما خلد أعمالهم وعمائرهم على مر السنين .

ففى أعقاب فتح العرب لمصر سنة ١٨ هـ (٦٣٩) . شيد القائد عمرو بن العاص مدينة الفسطاط فى سنة ٢١ هـ (٦٤١) ، واختط عمرو الجامع العتيق ، ثم اختطت

القبائل العربيـــة من حوله ، وكان عمرو قد ولى على الخطط أربعة من المسلمين للفصل بين القبائل فى تنظيم خطة كل منها ، هم : معاوية بن خديج التجيبى ، وشريك بن سمى الغطيفى ، وعمرو بن محزم الخولانى ، وجبـــريل بن ناشرة المعافرى (١) .

ولما قام بنو العباس وقضوا على حكم الأمويين ، أنشـأوا حاضرة جديدة لدولتهم الناشئة فى مصر فى مكان عرف فى صدر الاسلام باسم الحمراء القصوى فىشمال شرق الفسطاط وفيه أقام العباسيون دورهم واتخذوا مساكنهم ، وشـــيد صالح بن على دار الامارة وثكن الجند ، ثم شيد الفضـــل ابن صالح مسجد العسكر ، وبمرورالأيام اتصلت العســكر بالفسطاط وأصبحتا مدينة كبيرة خطت فيها الطرق وشيدت عليها المساجد والدور والأسواق .

ومضت الأيام حتى جاء أحمد بن طولون الى مصر وعزم على الاستقلال بالبلاد .. فرأى أن العسكر لا تتسع لحاشيته فضلا عن أنها تضيق بمطامعه ، فصعد الى المقطم ونظر الى ما حوله فرأى بين العســكر والمقطم أرضـــا فضاء الا من بعض المدافن مساحتها نحو ميل مربع ، فأمر بهدمها ليقيم عليها قاعدته ، واختط فى موضـــعها مدينته الجـــديدة ، القطائع : ووضـــعت الخطط الأولى للقاعدة الطولونية فى شعبان عام ٢٥٦ هـ / ٨٧٠م ، وبعد ست سنوات (٨٧٦م)

(١) ابن دقماق : الانتصار ، جـ ١ ، ص ٣٢٢ .

احتفل أحمد بن طولون بوضع أساس جامعه العظيم على جبل يشكر ، وانتهى بناؤه بعد عامين وما زال الجامع علما ناهضا فى تاريخ العمارة الاسلامية ، وكان ولا يزال موضع عناية جميع الحكام الذين تولوا الحكم من صيانة وتجديد واضافة خلال أكثر من ألف عام ...

وبعد قرابة مائة عام من انشاء عاصمة آل طولون ، قدم جيش فاطمى من المغرب بقيادة القائد جوهر الصقلى موفدا من قبل الخليفة المعز لدين الله وكان مسيره من القيروان فى ١٤ ربيع الاول عام ٣٥٨ هـ (فبراير ٩٦٩) . وفى ١١ شعبان ٣٥٨ هـ (يوليو ٩٦٩) وصل جوهر الى جيزة الفسطاط ، فوقفت فى وجهه حامية ضئيلة العدد ، وفى اليوم التالى دخل جوهر الفسطاط وتربص فى شمالها ثمانية أيام حتى تكاملت حوله جنوده بعد عبورهم النيل من الجيزة الى الفسطاط .

وكان جوهر قد نزل مع جنده فى المناخ الواقع شمال شرقى القطائع ، وأخذ فى وضع أساس القاعدة الفاطمية الجديدة — أى القاهرة . فى نفس الليلة ، وكان ذلك فى يوم الثلاثاء ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ (٧ يوليو ٩٦٩) .ويؤيد هذا ما ذكره المقريزى فى خططه (جـ ٢ ص ٢٠٤) كما وضعت أسس القصر الفاطمى الكبير (الشرقى) فى ١٨ شعبان ٣٥٨ هـ وبدىء فى بنيانه فى رمضان فى نفس العام.

وفى يوم السبت جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هـ (ابريل

٩٧٠) شرع القائد جوهر أيضا فى بناء الجامع الأزهر الى جانب القصر الكبير (الخطط ج ٢ ، ص ٢٧٣) .

وهكذا رأينا القائد جوهر فى أيام معدودات بعد فوزه الحربى ، يشيد قاعدة جديدة بأسوارها وأبوابها ودار ملكها وجامعها الأزهر ، بل وحفر خندقا من الجهة الشمالية ليمنع اقتحام القرامطة للقاهرة وكانوا يهددون مصر .

حقا لقد كان عملا رائعا ، ذلك الذى قام به القائد جوهر ، مؤسس القاهرة ومشيد الأزهر وفاتح مصر ...

جوهر الصقلى
الذى شيد القاهرة

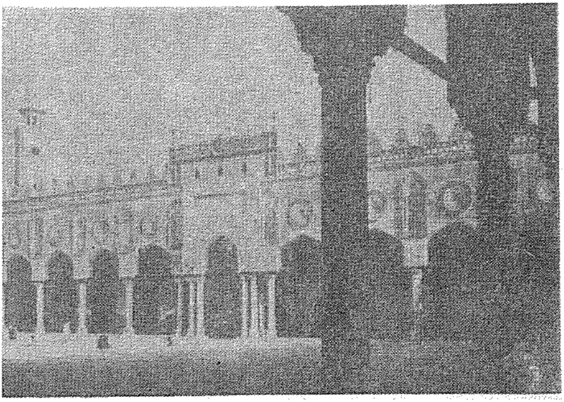
هو القائد الفاطمى الذى لا يعرف سنة مولده على وجه الدقة. فيقال انه ولد حوالى عام ١٩١٨ م ، ورباه المعز لدين الله واختصه بين مواليه وجعله وزير ثم عينه قائدا لجيوشه فى حملة أرسلها الى تاهرت ، وأخرى الى فاس . نصبه المعز قائدا لحملة فتح مصر عام ٩٦٩ م ، فاستولى على الاسكندرية ثم واصل زحفه الى الجيزة فوقعت فى يده ، ودخل الفسطاط بعد عبور قواته نهر النيل ، وتم عقد الصلح بين المصريين والفواطم . أسس جوهر مدينة القاهرة لتكون مقرا للفاطميين ومركزا لنشر دعوتهم الدينية

وشيد قصرا للخليفة الفاطمى وبنى الجامع الأزهر (٩٧٠ - ٧٢) وأقيمت فيه الصلاة لأول مرة فى ٧ رمضان ٣٦١ هـ (٢٢ يونيو ٩٧٢) · تولى جوهر قيادة الجيش الفاطمى للقضاء على أفتكين والحسن زعيم القرامطة بالشام (٩٧٦) ووطد سلطان الفواطم فيها · ثم عاد الى مصر عام ٩٧٩ حيث توفى ودفن بالقرافة الكبرى بالقاهرة ·

فما هى جنسية القائد جوهر ، الذى فتح مصر وأسس الأزهر ؟ تكلم عن ذلك العلامة أحمد زكى باشا شيخ العروبة فقال :

تضاربت الظنون ، بسبب الوصف الذى أطلقه عليه كتاب العرب المتقدمون ·

لا مراء ولا جدال أن جزيرة صقلية كانت قد دخلت



صحن الازهر الشريف

منذ زمان طويل فى حوزة أمراء أفريقية ثم آلت من بعدهم الى الفاطميين •

فى خلال ذلك الزمان ، كان قد انتشر فيها الاسلام أيما انتشار ، وازدهرت بربوعها العروبة أيما ازدهار •

فنبغ منها العلماء والفضلاء والكتاب والشعراء وأهل الوجاهة والرفاهة • وكلهم يعرف بالصقلى نسبة اليها • وقد جمع أسماءهم الكثيرة وتراجمهم الوافية أحد المستشرقين الطليان وهو العلامة أمارى (Amari) • من هذا الفريق كان القائد جوهر والدليل على ذلك ان وظيفته الأولى التى معروفا بها طول حياته وبعد مماته ، انما هى « كتابة السر » ثم تولى قيادة الجيش ، وقد أوغل فى فتوحاته حتى انتهى الى المحيط الاطلنطى • ولما كان الرجل منسوبا الى صقلية وكانت صقلية من البلاد الخاضعة لدولة الروم فى القسطنطينية فقد نسبوه الى هذه الدولة ، وقالوا انه « الرومى » كما كان الأتراك الى الأمس القريب ينسبون قضاتهم وأشياخهم ورؤساء الدين منهم الى الروم ، بسبب أن الترك فتحوا بلاد الروم • فصاروا ينتسبون وينسبون اليها فيقولون انهم « أروام » ويقولون فلان « الرومى » ، والامثال تعد بمئات المئات •

كان جوهر قائدا مدربا وسياسيا محنكا ، والدليل على ذلك أنه لم يلجأ الى وسائل الشدة والعنف فى نشر المذهب الفاطمى ، وانما اتبع الوسائل السلمية فاعتمد على

المسجد الذى اتخذه أشبه بمدرسة يتلقى فيه الأهالى تعاليم هذا المذهب ، دون أن يفرض على أحد اعتناقه ، فقد أنشأ الجامع الأزهر ليكون مركزا لتعليم المذهب الفاطمى حتى لا يضايق المصريين السنيين فى شعوره الدينى فى المساجد الأخرى ٠٠ وهذا التسامح لم يصرف جوهـــرا عن الغرض الأول من سياسة الفواطم ، وهو تعميم مذهبهم بين المصريين وغيرهم ، فقد لجأ فى جذبهم اليه الى الوسائل المادية ، وذلك باسناد مناصب الدولة الهامة الى معتنقى هـــذا المذهب ، مصريين كانوا أو مغاربة ٠٠٠

هذه لمحة قصيرة عن بناء القاهرة ٠٠ القائد جوهـــر رحمة الله عليه ٠ انجب « حسين » الذى خلع عليه الخليفـة العزيز بالله بعد وفاة جوهر ، وجعله فى رتبة أبيه ولقبـه بالقائد بن القـائد ، ولم يتعرض لشىء مما تركه جوهر ٠ فلما مات العزيز وقام من بعده ابنه الحاكم بأمر الله استدناه ثم انه قلده البريد والانشاء فى شوال سنة ست وثمانين وثلثمائة وخلع عليه ، ثم بعد أمور وقعت له ، قبض عليه وقتل وصودرت ضياعه ودوره !!

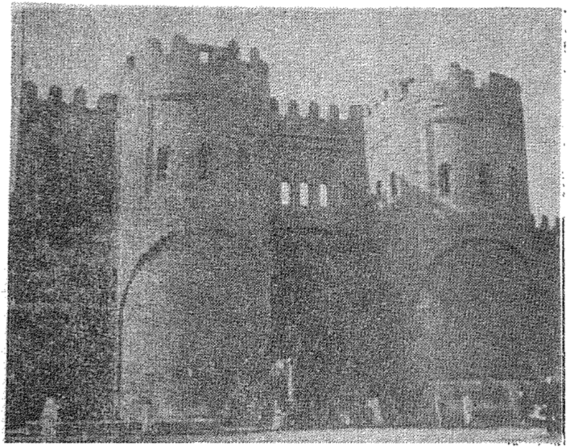
أمير الجيوش بدر الجمالى

(٤٠٥/ ٤٨٧ هـ ـ ١٠١٤/١٠٩٤ م)

البناء الثانى :

وبعد انقضاء ١٢٠ سنة من تأسيس القاهرة رأى أمير الجيوش بدر الجمالى وكان يومئذ وزيرا للخليفـة المستنصر

بالله أن الناس شيدوا خارج سور القاهرة بسبب اتســاع العمران ولا سيما فى ناحيتها الشمالية والجنوبية ، فأحاطها بسور وصله بسور جوهر يمينا ويسارا ، ويستفاد مما جاء



باب الفتوح (٤٨٠ هـ ـ ١٠٨٧)

بالخطط المقريزية (جـ ١ ، ص ٣٧٩) أن الســـــور الثانى الذى بناه بدر الجمالى فى عام ٤٨٠ هـ ـ ١٠٨٧ م زاد فيه من الشمال الزيادة التى بين بابى القوس اللذين أنشأهمـا جوهر فى سور القاهرة الشمالى وبين السور الحالى الذى فيه

باب النصر وباب الفتوح الحاليان ، ثم أضاف فيه من الجهة الجنوبية الزيادة التى فيما بين بابى زويلة القديمين اللذين أنشأهما جوهر فى سور القاهرة الجنوبى وبين السور الذى فيه باب زويلة الحالى ، وجعل بدر الجمالى ـ الاسوار التى أنشأها من اللبن ، وأقام الأبواب من الحجـــارة ، وكذلك الأجزاء الواقعة على جانبى بابى الفتوح والنصر ، وعلى جانبى باب زويلة على مسافة ١٢٠ مترا تقريبا من كل جانب .

وقد زالت آثار الاسوار التى بناها بدر الجمالى باللبن وأقام صلاح الدين فى مكانها بعض أجزاء منها قطعات أخرى بالحجارة .

وتعتبر أعمال بدر الجمالى (وهى الأبواب الثلاثة) ذات أهمية بالغة ، لأنها تعتبر معالم بارزة فى العمارة العسكرية لعصور ما قبل الحملات الصليبية وهى باقية الى اليوم فى قلب القاهرة الأصيلة ويحف بها بعض أجزاء من الأســوار القديمة .

والآن يود القارىء الكريم أن يلم بشىء من تاريخ حياة الرجل الثانى فى بناء أسوار القاهرة وأبوابها .

كان بدر مملوكا أرمنيا لجمال الدولة بن عمار ولذلك عرف بالجمالى ، وما زال يأخذ بالجد فيمـــا يباشره ويوطن نفسه على قوة العزم حتى ولى امارة دمشق من قبل المستنصر بالله سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) ولأمر ما غادرهـــا سرا ذات

ليلة ، ثم وليها ثانية سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦) فبلغه قتل ولده شعبان بعسقلان ، فخرج في شهر رمضان سنة ٤٦٠هـ (١٠٦٧ /٦٨) فثار العساكر وأخربوا قصره . وتقلد نيابة عكا . فلما كانت أيام الشدة فى مصر (الغلاء والمجاعه) وثار العبيد في الريف والصعيد ونشط قطاع الطرق برا وبحرا ، كتب المستنصر اليه يستدعيه ليكون المتولى لتدبير دولته ، فاشترط أن يحضر معه من يختاره من العسكر ولا يبقى أحدا من عسكر مصر ، فأجابه المستنصر الى ذلك، فاستخدم معه عسكره وركب البحر من عكا واقترض المال من تجارها وأثريائها الذين قدموا له الغلال . وسار الى قليوب فنزل بها وأرسل الى المستنصر يقول : « لا أدخل الى مصر حتى تقبض على بلد كوش وكان أحد الأمراء وقد اشتهر على المستنصر ، فبادر الخليفة واعتقله بخزانة البنود، فقدم بدر عشية الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ٤٦٥ هـ (١٠٧٢م/٧٣) ، فتهيأ له أن قبض على جميع امراء الدولة بعد أن استدعاهم الى منزله فى دعوته لهم ، وبيت مع أصحابه أن القوم اذا أجنهم الليل فانهم لا بد يحتاجون الى الخلاء ، فمن قام منهم الى الخلاء يقتل هناك ، ووكل بكل واحد واحدا من أصحابه ، وأنعم عليه بجميع ما يتركه ذلك الأمير من اقطاع ودور ومال . فسار الأمراء اليه وظلوا نهارهم عنده وباتوا مطمئنين . فما طلع النهار حتى استولى

أصحابه على جميع دور الامراء وصارت رءوسهم بين يديه ، فقويت شوكته وعظم أمره ، وخلع عليه المستنصر بالطيلسان وقلده وزارة السيف والقلم فصارت القضاة والدعاة وسائر المستخدمين من تحت يديه ، وزيد في القابه أمير الجيوش — كافل قضاة المسلمين وهادى المؤمنين » · وتبع المفسدين فقضى عليهم؛ وقتل من أماثل المصريين وقضاتهم ووزرائهم جماعة ثم خرج الى الوجه البحرى فأسرف فى قتل من هناك من قبائل لواته واستصفى أموالهم وأفنى طائفة كبيرة من مفسديهم ونزل الى الاسكندرية وقد ثار بها جماعة فحاصرها أياما من المحرم سنة سبع وسبعين وأربعمائة الى أن أخذها عنوة وقتل جماعة ممن كانوا بها ، وعمر جامع العطارين من مال المصادرات وفرغ من بنائه فى ربيع الأول سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) ثم سار الى الصعيد فحارب قبائل جهينة والثعالبة وأفنى أكثرهم بالقتل وغنم من الاموال كثيرا فصلح حال الاقليم بعد فساده ثم جهز الجند لمحاربة الشام ولم يظفر منها بطائل ·· واستناب ولده شاهنشاه وجعله ولى عهده ، ومات فى ربيع الآخر وقيل فى جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤) بعد أن تحكم فى مصر تحكم الملوك ولم يبق للمستنصر معه أمر واستبد بالامور وضبطها أحسن ضبط وكان شديد الهمة موفور الحزم · ودفن خارج باب النصر شمال مصلى العيد وبنى على قبره تربة جليلة ، وقام من بعده بالامر ابنه شاهنشاه الملقب بالافضل ابن أمير الجيوش ·

لم يهمل بدر الجمالى مدينة القاهرة فقد وسعها من حديها الشمالى والجنوبى ، ففى عام ١٠٨٧ م سمح بالسكن فيها ولذلك امتد عمران القاهرة الى أطرافها وخارج أسوارها وصار يقال لأبنية القاهرة خارج أسوارها « ظاهر القاهرة »، وأنشئت أخطاط جديدة بعد أن كانت فضاء تشغله البساتين .

وعلى حافة المقطم أو فى أعلاه ، شيد الوزير بدر الجمالى مسجدا يعرف اليوم بمسجد الجيوشى وكان ذلك فى عام ١٠٨٥ وهو يشتمل على مقبرة وكان أول مسجد بنى بالحجارة فى القاهرة ومئذنة المسجد أقدم المآذن الفاطمية الباقية فى القاهرة وهى تقوم فى منتصف الضلع الشمالى ويبلغ ارتفاعها عشرين مترا وتتركب من قاعدة مربعة وتنتهى بمقرنص يعلوه مربع آخر فمثمن يحمل قبة

الفصل الثانى

بُناة القاهرة فى أيّام الأيوبيّين

كان يوسف صلاح الدين أحد ضباط الحملة التى أرسلها السلطان نور الدين محمود الى مصر بقيادة الأمير شيركوه الأسدى لطرد الصليبيين منها · وقد نجحت الحملة فى تحقيق هدفها ، وكان الخليفة العاضد لدين الله قد استوزر صلاح الدين فأصبح بذلك الرجل الأول فى الدولة ·

ولما قضى الامر بوفاة العاضد لدين الله عام ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) أبعد الوزير قراقوش جميع الفاطميين عن قصورهم ، واستولى عليها صلاح الدين ، وتسلم ما كان فيها من المال والخزائن والتحف ·· وباستيلاء صلاح الدين على مصر (٥٦٧ هـ) سمح للمصريين بسكنى القاهرة بعد أن كانت خاصة بالخلفاء الفواطم وأتباعهم ، وان كان القائد بدر الجمالى من قبل ، قد اذن لمن استطاع البناء أن يعمر ما شاء من القاهرة مستخدما فى ذلك أنقاض الفسطاط ·

لم ينسج صلاح الدين على منوال من سبقوه فى الحكم وأقام ضاحية ملكية على مثال « القطائع » أو « فرساى »

بل عمل شيئا جديدا ، فقد رأى أن يضم تلك الضـــواحى ببناء سور حولها ثم يتوجها بقلعته الشهيرة فوق جبل المقطم وكانت مدينة مصر بعد أن حرقها « شاور » تحاول النهوض من رمادها وبقاياها التافهة لتجدد شبابها فوجدت من يأخذ بيدها لينهض بها ـ كذلك رأى صلاح الدين أن يجمع معها تلك النواحى المبعثرة ضمن الضواحى الخربة ويضم اليهـا ميناء المقس ثم يلتف السور حولها • وقرر أن يكون بنـاء السور من الحجر وأن يمد سور بدر الجمالى الى المقس من ناحية الغرب والى تلال المقطم من ناحية الجنوب ثم يلتف عند بقايا مدينة الفسطاط القديمة حتى يمس النيل تقريبا • ولم يتم هذا المشروع العظيم لأن صاحبه شغل عنه بحملاته العسكرية فى الشام ، ولا نشك مطلقا أن وزيره فى القاهرة كان مشغولا عنه أيضـــا بتعبئة الرجال المدربين للقتـــال وتدبير المال اللازم لتجهيزهم فلم يقم الا ببنـــاء ما احتاجت اليه الدولة •

السد العظيم :

ومن أهم أعمال صلاح الدين الدفاعية بناء السد العظيم على الضفة الغربية للنيل عند الجيزة ويبعد عن مصر سبعة أميال وقد وصف الرحالة ابن جبير هذا السد بأنه مشروع عظيم لا يقدم عليه الا ملك متنور ساهر على أحوال رعيته وبلاده ، وقال عنه انه يحتوى على أربعين عقدا من أكبر الاحجام التى شاهدها للقناطر ذات العقود وكان على امتداد الجسر المرتفع

المقابل لمصر بعد ستة أميال منه · ولا شك أن بناء مثل هذا السد كان لسبب عسكرى هام فكر فيه صلاح الدين فانه لم ينس تاريخ غارات الفاطميين المتوالية على مصر من ناحية الصحراء الليبية حيث كان المغيرون يتقدمون سيرا حتى يصلوا الى شاطىء النيل دون أن يقف فى سبيلهم ما يعرقلهم من الحقول أو الجسور · ولهذا رأى صلاح الدين أن يتحصن باقامة هذا السد العظيم ·

قلعة صلاح الدين

ولم تكن أسوار صلاح الدين الا صورة منفحة لأسوار بدر الجمالى ، أما القلعة فكانت فكرة مبتكرة · ويحتمل أن يكون الباعث لصلاح الدين على اقامتها بغضه الشديد للخلفاء الفاطميين الشيعيين ولقصورهم التى سكنوها فقد لا نشك اذا قلنا ان صلاح الدين على الرغم من قصر مدة اقامته فى القاهرة رغب فى أن يجعل القلعة مقرا لسكناه · ولكى نفسر كيف أراد أن يشيدها كقلعة للدفاع نعود الى حملات صلاح الدين فى سوريا حيث لا تخلو مدينة سورية من قلعتها · فنظر بعينه العسكرية ورأى حاجة القاهرة الى قلعة تحميها فتمت مشيئته ·

اختار صلاح الدين المكان لاقامة تلك القلعة التى تحكم القاهرة على ارتفاع لا يقل عن ٢٥٠ قدما ولو أنه كان من ورائها على الجبل مواقع أعلى تحكم موقع القلعة وتشرف

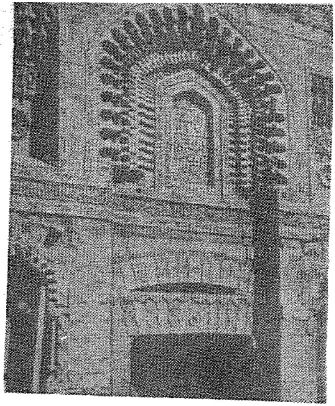
عليها بنيرانها فاننا لا ننسى مكانة الأسلحة الحربية القديمة بجانب الأسلحة الحديثة . والنتيجة لا تجعلنا نبخس المهندسين العسكريين فى القرن الثانى عشر حقهم من الكفاءة والمقدرة فى فن العمارة فان عملهم لا يزال واضحا لزملائهم فى القرن العشرين •

وقام صلاح الدين بتنفيذ مشروع بناء القلعة فى عام ١١٧٧ م وأقام على عمارتها الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى الخصى وأحد أمرائه المخلصين •

ولم ينقض على العمل ست سنوات حتى نقش على الباب المدرج فى الضلع الغربى من القلعة ما نقرأه الى يومنا هذا •

« بسم الله الرحمن الرحيم • أمر بانشاء هذه القلعة الباهرة المجاورة لمحروسة القاهرة التى جمعت نفعا وتحسينا وسعة على من التجأ الى ظل ملكه وتحصينا مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين أبو المظفر يوسف بن أيوب محيى دولة أمير المؤمنين فى نظر أخيه وولىعهده الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد خليل أمير المؤمنين على يد أمير مملكته ومعين دولته قراقوش بن عبد الملك المالكى الناصرى فى سنة تسعة وسبعين وخمسمائة (أى فى عام ١١٨٣ — ١١٨٤ م) • »

مات صلاح الدين قبل أن ينتهى بناء القلعة فأهمل



واجهة مدرسة الصالح نجم الدين أيوب ، وتلاحظ فيه المقرنصات الزخرفية والكتابات النسخية

العمل مدة الى أن كانت سلطنة الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب فى قلعة الجبل وأنابه فى حكم مصر وجعله ولى عهده ، فأتم بناء القلعة وما برح يسكنها حتى مات فاستمرت من بعده دار مملكة مصر حتى عام ١٨٥٠ ـ ولقد طرأت على مبانيها تغييرات واضافات متعددة ولا ترى فيها اليوم من أعمال صلاح الدين الاولى سوى بعض أجزاء السور والأبواب ٠

سور القاهرة

ابتدأ السلطان صلاح الدين عمارة السور الثالث للقاهرة سنة ٥٦٦ هـ (١١٧٠/٧١م) وهو يومئذ وزير للخليفة

العاضد لدين الله . وفى عام ٥٦٩ هـ (١١٧٢/٧٤) انتدب الطواشى بهاء الدين قراقوش الأسدى لعمل السور فبناه بالحجارة كما هو عليه الآن ، وأراد أن يجعل على القاهرة ومصر (مصر القديمة) والقلعة سورا واحدا فزاد فى سور القاهرة الممتد من باب القنطرة الى باب الشعرية ومن باب الشعرية الى باب البحر ومن قلعة المقس فى نهاية السور البحرى على النيل بجانب جامع المقس وانقطع السور من هناك وكان أمله أن يمد السور من المقس الى أن يتصل بسور مصر (مصر القديمة) ثم زاد فى سور القاهرة الجزء الذى يلى باب النصر الى برج الظفر ومن هذا البرج الى باب البرقية ومنه الى درب بطوط والى خارج باب الوزير ليتصل بسور قلعة الجبل فانقطع لوفاة صلاح الدين من مكان يقرب الآن من الصوة تحت القلعة . وقد ذكر المقريزى أن طول السور المحيط فى أيامه بلغ ٢٩٣٠٢ ذراعا (بذراع العمل) وهو الذراع الهاشمى .

شرع صلاح الدين فى سنة ٥٦٦ هـ فى بناء السور الغربى للقاهرة على الحافة الشرقية للخليج المصرى فى محاذاة سور بدر وسور جوهر وعلى بعد قليل منهما الى جهة الغرب وأقام صلاح الدين فعلا قطعة من السور الغربى وهى الممتدة من النهاية الغربية لسور بدر الجمالى البحرى ومتجهة نحو الجنوب الى باب القنطرة الذى أنشأه صلاح الدين فى السور الغربى المذكور تجاه باب القوس الذى كان يعرف بباب الرماحين .

ثم رأى أن يزيد فى سور المدينة البحرى ومده الى الغرب ويبنى سورها الغربى على النيل بدلا من الخليج وذلك لكى يدخل فى السور القسم الذى استجد خارج القاهـــرة فى الجهة الغربية منها بين الخليج والنيل ولكى ينفذ هذا المشروع أوقف بناء السور الغربى على الخليج بعد باب القنطرة ·

وفى سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٣/٧٤ م) شرع بهاء الدين قراقوش فى مد السور البحرى من باب الشعرية الى باب البحر بالمقس وأتمه فعلا وأراد أن يبنى الســـــور الغربى للقاهرة على النيل من باب البحر الى فم الخليج ليوصل سور القاهرة بسور مصر القديمة ولكن وفاة صلاح الدين حالت دون ذلك ·

وقد اندثر أغلب سور صلاح الدين والباقى منه مبين على خريطة للقاهرة وضحت عليها الآثار الاسلامية بألوان مختلفة طبعتها مصلحة المساحة باشراف لجنة حفظ الآثـــار العربية ·

صلاح الدين يبنى قبة الامام الشافعى

لما توفى الامام الشافعى فى سنة ٢٠٤ هـ (٨١٩ م) دفن بتربة أولاد ابن عبد الحكم · وفى عام ٥٧٢هـ(١١٧٦م) شيد السلطان صلاح الدين الأيوبى تربة الشافعى ، وبنى بجوارها المدرسة الصلاحية · وفى سنة ٥٧٤ هـ (١١٧٨م) فرغ من عمل التابوت الخشبى الذى يعلو تربة الشافعى ،

وهذا التابوت صنع من خشب الساج الهنــدى المقسم الى حشوات هندسية منقوشة ومكتوب عليها آيات قرآنية ، وترجمة حياة الشافعى واسم الصانع الذى قام بعمله وذلك بالخطين الكوفى ، والنسخ الايوبى ۰ ولما توفيت والدة الملك الكامل بن العادل سنة ٦۰٨ هـ (١٢١١م) شيد الكامل قبة كبيرة ضمت الى قبر الشـــافعى وقبر أولاد ابن عبد الحكم وأفراد الأسرة الأيوبية ثم أجرى الماء اليها من بركة الجيش وكان الفراغ من انشائهـــا فى يوم الأحد ٧ جمادى الأولى سنة ٦۰٨ هـ (١٢١١) ثم أنشأ تابوتا من الخشب فوق تربة والدته لا يقل دقة عن تابوت الشافعى ۰

والملك الكامل محمد هذا هو منشىء دار الحديث الكاملية الجليلة فى النحاسين ، وكان ذلك فى عام ٦٢٢هـ (١٢٢٥م) وتقع بقايا الدار الكاملية على الجانب الغربى لسوق النحاسين والى الناحية الشمالية لمدرسة وضريح السلطان برقوق ۰

منشئات الملك الصالح نجم الدين :

وتنسب الى الملك الصالح نجم الدين الأيوبى المدرسة الصالحية التى وضع أساسها فى ١٤ ربيع الاول سنة ٦٤۰هـ (١٢٤٢) وبدأت الدراســـــة فيها فى العالم التالى وذلك بالرغم من ضخامة بنائها ، وقامت على موضع القصر الفاطمى الشرقى وكان أول من درس بها فى المقابلة قاضى القضـــاة شمس الدين أبو بكر ۰ وتعتبر مئذنة المدرسة نموذجـــــا

فريدا للمآذن الأيوبية ولها مكانتها من ناحية التطور المعماري للمئذنة ٠

وشيد الملك الصالح في أقصى جنوب القاهرة ، وفي جزيرة الروضة ، قلعة منيعة فيعام ٦٣٨ هـ (١٢٣٩م)وعمل لها ستين برجا وبنى فيها مسجدا وغرس بداخلها أنواعـــا شتى من الأشجار وشحنها بالسلاح والازواد وكانت هذه القلعة تشغل مساحة من الأرض لا تقل عن ٦٥ فدانا ٠ ومنذ ذلك الحين شيد الناس المساكن في الجزيرة وأصـــبحت من المناطق الآهلة بالسكان ٠

بناء القلاع والأسوار

قراقوش بن عبد الله الأسدي الملقب ببهاء الدين

ومن عسى أن يكون هذا الأمير الذي اختاره صـــلاح الدين الأيوبي من صفوة الأمراء ليشـــيد أسوار القاهرة ويبني قلعة الجبل والسد العظيم ٠ اتصل الفتى الرومي بأسد الدين شيركوه عم صلاح الدين في دمشق ، وكان أســـد الدين وأخوه نجم الدين أيوب في خدمة ملك عظيـم من آل زنكي ، هو عماد الدين ثم مات هذا الملك وخلفه على الحكم في الشام ولده نور الدين محمود ، فقرب هذين الضابطين الأخوين انتفع بخدمتهما وبعد سنوات أعتق أسدالدين قراقوش وأصبح ينسب اليه ، فيقال قراقوش بن عبد الله

الأسدى . ولما مات أسد الدين اتصل الضـــابط قراقوش بخدمة ابن أخيه صلاح الدين فصار يدعى بهاء الدين بن عبد الله الأسدى الناصرى . وكان هذا الفتى قد أتى الى مصر ضمن الحملة التى أوفدهـــا نور الدين للتدخل فى شئون مصر أيام التهديد الصليبى ، فذهب اليها أســـد الدين ومعه ابن أخيه صلاح الدين وقراقوش وشاهد الثلاثة انهيار الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية ، وهكذا أصبح هذا الفتى الجندى من أهم دعائم الدولة الفتية الجديدة .

وفى عام ٥٦٤ هـ (١١٦٨م) اضطرب رجال القصر الفاطمى وسعى بينهم من حذرهم عاقبة وزارة صلاح الدين ، ووقفهم على نيات هذا الرجل الخطير وأهمها ازالة الدعـوة الفاطمية واقامة الدعوة العباسية ثانية .

فى تلك الآونة أخذت المؤامرات تظهر واحدة فواحدة، وكانت أولاها مؤامرة داخل القصر الفاطمى ، دبرها خصى أسود اسمه « عبد المؤتمن » ، أراد بها اسقاط صلاح الدين والقضاء على جنده وعلى من أتوا معه من أهله وعشيرته. وكاد النجاح يكتب لهذه المؤامرة لولا ذكاء القاضى الفاضل من ناحية ، ولولا سيف الملك شمس الدولة بن أيوب وهو الأخ الأكبر لصلاح الدين من ناحية ثانية .

فى هذه الآونة فكر عبد المؤتمن ورجـاله أن يملئوا أيديهم من ذخائر القصر الفاطمى التى توشك أن تضيع منهم

الى الأبد ، وكان من أغراضهم فى ذلك أن يستعينوا ببعض ثمنها على تشجيع الجند ، وتوفير المال اللازم لرجال المؤامرة .

عرف ذلك الوزير صلاح الدين ، فلم يمض وقت طويل حتى هداه تفكيره الى خادمه الأمين ، وصديقه الغيور ، بهاء الدين قراقوش ، فجعله متولى القصر الفاطمى ، يحرسه ويصون ذخائره ، فقام على حراسته بعين لم تمكن أحدا من أولئك المتآمرين من أخذ شيء من ذخائره ، على كثرتها ودقتها وسهولة حملها وامكان اخفائها .

قراقوش ينشىء الأعمال الحربية

كان بين الحكومتين الفاطمية والأيوبية فروق ، يمكن أن ترد كلها الى سبب واحد ، هو أن حكومة الفاطميين كانت حكومة مدنية ، أما حكومة السلطان صلاح الدين فكانت حكومة عسكرية ، عنيت الأولى منهما بنظام الدواوين واستكثرت فيها من الكتاب والموظفين ، على حين اكتفت الثانية بعدد يسير من هذه الدواوين ، ومن الموظفين ، واستأثرت الحرب بجزء عظيم من عناية الدولة الأيوبية ، وذلك أن مهمة هذه الدولة انحصرت يومئذ فى شيئين هما : التغلب على مذهب الشيعة فى داخل مصر ، ثم احراز النصر النهائى على الفرنج واجلاؤهم عن القدس .

من أجل ذلك احتاج السلطان صلاح الدين الى منشئات حربية ومدنية، كان من أهمها اذ ذاك اقامة الجسور، وتطهير

الترع ، وتشييد القلاع والأسوار المحيطة بالبلاد ، لتقيها شر الغارات التى تأتى اليها من جانب الفرنج تارة والشيعة المنبثين فى بقاع كثيرة من العالم الاسلامى تارة أخرى ٠

ومن لهذه المشروعات الحربية العظيمة غير الأمير بهاء الدين قراقوش ، يبذل فيها جهده ، وتعينه على البذل طبيعة له عرفت بالصبر وبالجلد ، ثم مواهب هندسية سرعان ما كشف عنها صلاح الدين وأفاد منها فى حروبه فائدة ليس الى انكارها من سبيل ٠

لعل أول ما أقام الأمير من ذلك قلعة الجبل ، بناها على قطعة مرتفعة تنفصل من جبل المقطم ، وتشرف منها على القاهرة كلها ، تم بناؤها فى عهد الملك الكامل من ملوك بنى أيوب ، واتخذت منذ ذلك اليوم مقرا للحكومة ، واستمر الحال على ذلك الى زمن محمد على باشا ٠ ثم لم يكن الا فى عهد اسماعيل أن انتقلت دواوين الحكومة الى دور أخرى وسط القاهرة ٠ غير أنه ما كاد الأمير قراقوش يفرغ من بناء قلعة الجبل ، حتى اشتغل فى بناء قلعة أخرى يقال لها قلعة المقسى وهى برج كبير بناه الأمير على النيل ٠ وبنى بالقرب منه أبراجا أخرى ٠ ثم ما كاد الامير يستريح أيضا من بناء هذه الأبراج والحصون ، حتى شغل نفسه بمشروع آخر هو اقامة سور عظيم حول مصر والقاهرة ، قطع الحجارة من الأهرام الصغيرة وبناه ــ تجاه الجيزة على مسافة بعيدة منها ٠

أقبل الأمير قراقوش على بنـــــاء السور ، وحفر في القلعة بئرا وكانت هذه البئر من عجائب الأبنية ، يدور البقر من أعلاها ، وينقل الماء من وسطها ، وتدور أبقار أخرى في وسطها ، فينقل الماء من أسفلها ، وجميع ذلك حجر منحوت ليس فيه بناء . وقيل ان أرض هذه البئر مسامتة لأرض بركة الفيل ، وان ماءها كان عذبا في أول الأمر ، ثم أراد قراقوش الزيادة في مائها ، فوسعها ، فخرجت منها عين مالحة ، غيرت حلاوتها (١) .

وكان هذا السور الذى بناه قراقوش هو ثالث الأسوار التي أحاطت بالقاهرة الى عهده .

عند ذلك كتب القاضي الفاضـــل الى السلطان صلاح الدين رسالة طويلة منهـــا قوله : « والله يحيي المولى حتى يستدير بالبلدين نطاقه ، ويمتد عليهما رواقه ، فما عقيلة كان معصمها ليترك بغير سوار ، ولا خصرها ليتحلى بغيـر منطقة نضار . والآن قد استقرت خواطر الناس ، وآمنوا من يد تتخطف ، ومجرم يقدم ولا يتوقف .. » فلما قرأ السلطان الرسالة سر بها وبخادمه بهاء الدين قراقوش ، وعلم أن الله تعالى يريد بدولته خيرا ، اذ قيض لها مثله ومثل وزيره القاضي الفاضل .

---

(١) د. عبد اللطيف حمزة : حكم قراقوش . مطبعة مصـطفى البابي الحلبي ، القاهرة .

بذلك أصبحت لقراقوش خبرة بمثل هذه الأعمال الحربية الجديدة ، وكان السلطان كلما احتاج الى عمارة قلعة، أو تجديد حصن ، أو تقوية جسر أو اقامة سور ، أو بناء برج ، عهد اليه فى هذا العمل ، فقام به على خير طريقة ٠

ولعل آخر ماقام به من ذلك عمارته لسور عكا عام ٥٨٥ هـ ١١٨٩ م ، وذلك فى أثناء المحنة الكبرى التى مرت به وبالمسلمين ٠

قراقوش الجندى فى حصار عكا :

كان قراقوش جنديا له شخصيته البارزة فى الجيش ، غير أنه كان ذا ميول حربية هندسية ، عرفها السلطان صلاح الدين ، فكان يؤثر أن يتركه لهذه الأعمال التى ذكرنا طرفا منها ٠٠ ويذهب هو الى القتال ومعه قواده وأبطاله ممن كانوا يحسنون الكر والفر فى الميدان ٠ من أجل ذلك لم نسمع عن بهاء الدين قراقوش أنه اشترك فى حرب للسلطان الا حين كان يدعوه السلطان الى اقامة الاسوار ونحوها ، فاذ ذاك لا يجد الأمير بدا من الذهاب معه ٠

ومضت السنون ، وانتصر السلطان صلاح الدين على الفرنج ، واستولى منهم على بيت المقدس ، ثم تقدم فى فتوحه ، حتى يسر الله له فتح حصن من أكبر حصون الفرنج ، وهو حصن عكا ، فملك السلطان هذا الحصن المنيع ، ولكن بعد أن دفع فيه الثمن غاليا ، من المال

وبالأنفس ، واستشهد فى ذلك اليـوم أخ للفقيـه عيسى الهكارى وأتى النـاس يعزونه ، فأنكر عليهم ذلك وقال « هذا يوم الهناء ، لايوم العزاء » .

وكان سور المدينة قد تهدم من شدة القتال ، فرأى السلطان أن يترك المدينة والحصن للأمير قراقوش ، ويذهب هو لامتلاك الحصون الأخرى ، قبل أن يجمع الفرنج شملهم، أو يأتيهم المدد من ملوكهم فيما وراء البحر . فبقى الأمير فى هذه المدينة ، وبقيت معه حامية ليست بالكبيرة ، وسهر فى اقامة ما تهدم من السور وعكف على عمله هذا بهمة ، وهو واثق من أمر الله الذى وهب للمسلمين النصر حتى ملكوا هذا الحصن ، ولكن حدث مالم يكن فى الحسبان حدث أن الفرنج بعـــد انهزامهم اجتمعوا فى حصن آخـــر من حصونهم ، واتفقوا على أن يذهبوا بجموعهم الى عكا ، حيث يظلون محاصرين لهذه المدينة ، أو يأتيهم المدد الذى طلبوه من بلادهم ، وكان قصد الفرنج من ذلك أن يشغلوا بهذا الحصار بال المسلمن ، فقد أصبح بينهـم وبين أن يطردوا الفرنج من البلاد نهائيا ، أن يأخذ المسلمون منهم بضعة حصون كانت لهم على الساحل .

فضرب الحصار على عكا عـامين ، ذاق فيهما الامـير والمسلمون معه الأمرين بل ذاقوا هناك أقسى ما عرفته المحنة الصليبية من ألم ، حتى لقد نفدت الأقوات من المدينـــة ، وكان على المسلمين أن يمدوا اخوانهم فيها بالطعام والميرة

ولكن الفرنج كانوا كثيرا ما يحولون بينهم وبين هذا العمل. الذى تتوقف عليه حياة المسلمين في هذه المدينة البائسة • فانتشر فيهم الجوع وفغر الوباء فاه ، والعدو مع ذلك يمطر رجال الحامية وابلا من عذابه من خارج الحصن •

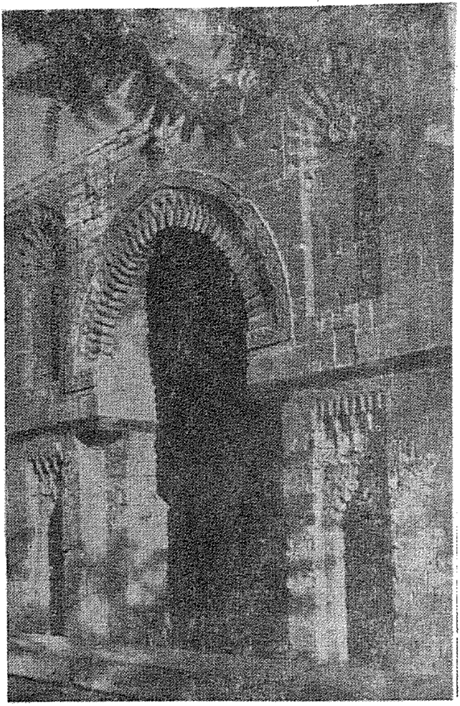
كل ذلك والأمير بهاء الدين قراقوش يصبر ويتجلد، وكلما فكر جنده فى التسليم للعدو مناهم وأملهم وشد عزائمهم ، وما يزال بهم حتى يرجعوا عن هذا العزم ، ويتقدمون شجعانا كعادتهم لاخافة هذا الخصم •

ومع ذلك شاءت الاقدار أن يخذل هذا الأمير الصابر ، فى الدفاع عن نفسه وشرفه وجنده فى هذه المحنة القاسية• فأتى المدد الى الفرنج من ملوكهم فيما وراء البحر ، ووقف ملوك الصليبيين صفا واحدا أمام جيش صلاح الدين ، فوهن المسلمون يومئذ ، ودخل الملوك المسيحيون عكا • وانهالوا على أهل المدينة نهبا وذبحا وأسرا • وكان الأمير نفسه ممن أسروا ، وبقى فى الأسر حتى أفرج عنه حين عقد الصلح • وكان يوم الافراج عنه يوم سرور عظيم • ، اذ فرح به السلطان الفرح كله ، لما كان له عليه وعلى الاسلام كله من الحقوق ، فبقى الأمير الى جانب السلطان لم يفارقه حتى فارق السلطان هذه الدنيا • وكان الافراج عنه فى يوم الثلاثاء ١١ شوال سنة ٥٨٨ هـ (١١٩٢ م) وعاد الى مصر حيث توفى فى مستهل رجب سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠٠ م) بالقاهرة •

الفصل الثالث

القاهرة فى أيّام دَولة المماليك وبَعدها

يمكن القول بأن العصر الذهبى للقاهرة هى الفترة التى حكمت فيها دولة المماليك (١٢٦٠ ـ ١٥١٧ ، ولاسيما بعد ما انتهت الحروب الصليبية فى الشام عام ١٢٩١ وخف الضغط المغولى عقب انتصار المماليك ، ففى أيام السلطان الظاهر بيبرس امتدت القاهرة فى اتجاه الشمال خارج الأسوار فى حى الحسينية • فقد شيد الظاهر مسجدا رائعا فى ميدان قره قوش يعرف اليوم باسم جامع الظاهر وكان اسمه قديما جامع الصافية • وقد شيد الظاهر فى قلعة صلاح الدين عديدا من المبانى الجميلة كدار الذهب، وأنشأ سوقا للخيل كما أنشأ جسرا كبيرا يصل بين بركتين كبيرتين بالقاهرة وأهم من كل ذلك أنه أقام قناطر السباع على الخليج الكبير ، بالقرب من مسجد السيدة زينب وكان هذا الخليج المتصل بالنيل من أهم معالم القاهرة فى العصور الوسطى • ولا ننسى أن أمراء الظاهر شاركوه فى بناء كثير من العمائر والرباع والخانات والدور والمساجد والحمامات التى أضافت مسحة من الجلال والجمال على تلك المدينة •



الباب الغربي لمسجد الظاهر بيبرس

اتسعت القاهـرة فى أيام أسرة قلاوون التى حكمت مصر حوالى المائة سنة ، ولا سيما فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون وأمرائه وقادة جيشه ، فامتدت المدينـة جهه الشمال عبر الصحراء والشمال الغربى والغرب أيضا بما طرحه النيل من أرض جاء بها الطمي فتحول مجـراه تدريجيا من الشرق الى غرب القاهرة • ولم يترك المماليك قطعة أرض داخل القاهرة الفاطمية أو خارجها فى شماليها أو جنوبيها حتى أقاموا فيها المساجد والمدارس والأضرحة والحمامات والسبل والوكالات ، فكان الاقبال على البنـاء والتعمير فى عصر المماليك لامثيل له بالرغم من انشغالهـم بمحاربة المغول والصليبيين • فقـد عم الرخاء فى أيامهم وتوفر المال فى خزائنهم بما كانت تعود به التجارة مـع الشرق والغرب وما كانوا عليها من المكوس ولذلك تسابق السلاطين والأمراء والأعيان فى اقامة أفخم المساجد وأروع القصور والدور التى حشـدوا فيها التحف النادرة • وما زالت طائفة كبيرة من هذه الدور نشاهدهـا فى أنحـاء القاهرة •

كانت أيام القاهرة فى عصر الناصر محمد بن قلاوون عصرا ذهبيا دون شك • فقد أحب هذا السلطان العمـارة فأخذ هو وأمراؤه فى ترصيع القاهرة بمجموعة المبانى التى قلما تجتمع فى أية مدينة وفى عصر واحد • انشأ الناصر تحت قلعة صلاح الدين ميدانا فسيحا للألعاب والمسابقات بين الأمراء ، وعمر كثيرا من القصور فى داخل القلعة كما

شيد فيها جامعة ذا المئذنتين وهو مازال ناهضا فيها، وبنى بالقلعة دورا للأمراء الذين زوجهم لبناته وأجرى اليها المياه العذبة ٠

ومن أهم أعمال الناصر محمد حفره الخليج الناصرى فى غرب القاهرة حتى أوصله الى سرياقوس وكان يتصل بالخليج الكبير القديم وذلك لزيادة الماء فيه وكان هذا الخليج يبدأ من موردة البلاط ويمر بأراضى اللوق وبركة قرموط وباب البحر ثم أرض الطبالة (بالقرب من الفجالة) وعندها يصب فى الخليج الكبير .وقد انتهى حفره فى شهرين فقط ! ومما نذكره أن أرض الطبالة كانت من أجمل متنزهات القاهرة وكانت تمتد فى المنطقة التى على جانب الخليج الغربى وتغطى اليوم جزءا من حى الظاهر وجنوب شارع الفجالة وشرقها شارع الخليج المعروف اليوم ، وجدير بالذكر أن « الطبالة » هو اسم مغنية الخليفة المستنصر بالله الفاطمى وكان وهبها أراضى تلك المنطقة !

وفى أيام السلطان الناصر محمد وفد على مصر أمير الرحالين المسلمين ابن بطوطة وكان ذلك فى عام ١٣٢٦ وقد وصف فى رحلته البلدان المصرية التى مر بها وخص القاهرة بنصيب الأسد ، فقال :

« وصلت الى مدينة مصر (كانت تعرف القاهرة بمصر كما هو الحال اليوم) وقرارة فرعون ذى الأوتاد ، ذات

الاقاليم العريضه والبلاد المتناهيه فى كثرة العمارة المتناهية بالحسن والنضارة ، مجمع الوارد والصادر ، ومحط رحل الضعيف والقادر ، وبها ما شئت من عالم وجاهل وجلد وهازل ، وحليم وسفيه ، ووضيع ونبيه وشريف ومشروف، ومنكر ومعروف ، تموج موج البحر بسكانها ، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وامكانها • شبابها يجد على طول العهد وكوكب تعاليها لا يبرح عن منزل السعد ، قهرت قاهرتها الأمم وتملكت ملوكها نواصى العرب والعجم ، ولها خصوبة النيل التى جل خطرها وأغناها عن أن يستمد القطر قطرها، وأرضها مسيرة شهر لمجد السير • كريمة التربة مؤنسة لذوى الغربة » •

وجدير بالذكر أنه فى أثناء حكم المماليك البحرية ، وبالتحديد فى عام ١٣٦٤ ، ولد المؤرخ أحمد بن على المقريزى الذى قدر له أن يؤلف موسوعة هامة عن خطط مصر وعن القاهرة بوجه خاص ، أتاحت لنا التعرف على ما كانت عليه القاهرة ومبانيها منذ أسست حتى القرن الخامس عشر ، ووصف مساجدها ومدارسها وحماماتها •• الخ وبعضها باق الى اليوم يتحدث عن جمال عمارة القاهرة وفنونها البديعة •

بناة القاهرة المملوكية

يقابلنا السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى فى

طليعة بناة القاهرة على أيام دولة المماليك الأولى (البحرية)· وأثر هذا العاهل العظيم في امتداد القاهرة خارج الأسـوار الشمالية كان بداية توسع القاهرة في هذا الاتجاه ·

ففي ميدان قراقوش بنى الظاهر بيبرس مسـجده الفخم الذى يعرف اليوم بمسـجد الظـاهر ويعتبر من أجل العمائر المملوكية وكان اسمه جامع العافية ، بناه في سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٦) ويبلغ مسطحه ١١٨٨٠ مترا مربعا وهو ما يقرب من ثلاثة أفدنة وقد تعذر الصرف على هذا المسجد منذ القرن السادس عشر بسبب سعته ثم تخرب وسقطت قبته الكبيرة التى كانت فوق ايوان المحراب ، ثم سقطت مئذنته ولم يبق منه الآن سوى جدرانه الخارجية ·

وكان الظاهر بيبرس بنى مدرسته الظاهرية فيما بين عامى ٦٦٠ ـ ٦٢ هـ (١٢٦٢ ـ ٦٣) وقد بقى جزء صغير منها وعليه اسم منشئها وتاريخ انشائها ـ وتقع بجانب قبة الملك الصالح نجم الدين أيوب من الجهة الشمالية بشارع المعز لدين الله · وكان لهذه المدرسة باب جميل من النحاس ليس له مثيل في صنعه وحسن اتقانه وجمـال زخرفه ، منقوش عليه اسم الملك الظاهر بيبرس وسـنة ٦٦١ هـ (٦٣/١٢٦٢) التى صنع فيها ·

يحدثنا ابن تغرى بردى في كتابه (١) عمـا بنـاه

(١) النجوم الزاهرة : جزء ٧ ، ص ١٩٠ ــ ١٩٢ ·

الظاهر بيبرس خلال مدة حكمه فيقول :« وأما مبانيه فكثيرة .. وعمر بقلعة الجبل دار الذهب ، وبرحبة الحبارج قبة عظيمة محمولة على اثنى عشر عمودا من الرخام الملون ،وصور فيها سائر حاشيته وأمرائه على هيئتهم ، وعمر بالقلعة أيضا طبقتين مطليتين على رحبة الجامع (هدمه فيما بعد الناصر محمد) وأنشأ برج الزاوية المجاورة لباب القلعة (الباب المدرج) وأخرج منه رواشن ، وبنى عليه قبة وزخرف سقفها، وأنشأ جواره طباقا للمماليك أيضا ، وأنشأ برحبة باب القلعة دارا كبيرة لولده الملك السعيد ... وأنشأ دورا كثيرة بظاهر القاهرة برسم الامراء .. وأنشأ حماما بسوق الخليل لولده الملك السعيد ، وأنشأ الجسر الأعظم والقنطرة التى على الخليج وأظنها قنطرة السباع (ميدان السيدة زينب) وأنشأ الميدان بالبورجى وأقام به المناظر والقاعات ، وجدد جامع الأنوار (الأقمر) ، والجامع الأزهر ، ... وعمر بالمقياس قبة رفيعة ، وأنشأ عدة جوامع بالديار المصرية . »

وفضلا عن ذلك ، فقد شجع الظاهر بيبرس القيام بالاعمال العامة ، فشيد أمراؤه المساجد وأسسوا المعاهد الدينية وأصلحوا الثغور والمعاقل وزاد فى استتباب الأمن فى مملكته بترتيب خيل البريد ، فكانت تصل الأخبار بسرعة بين حاضرة البلاد ودمشق .

السلطان المنصور قلاوون

هو البناء الأول في أسرة آل قلاوون التي حكمت حوالى المائة سنة ، وقد حكم المنصور قلاوون حتى توفى وهو فى السبعين وكان ذلك فى ١٠ نوفمبر ١٢٩٠ · مات وقد خلف طائفة من العمائر النادرة التى رصع بها حى الجمالية ، نذكر منها مدرسة الجليلة وقبته أى ضريحه وأخيرا بيمارستانه الفريد (مستشفاه) ، الذى كان مفخرة العالم الاسلامى ·

بدىء فى بناء البيمارستان فى أول ربيع الثانى سنة ٦٨٣ هـ (١٢٨٤) ، وتم انشاؤه بعد ثمانية أشهر ، ومازال جزء منه قائما الى اليوم ، وقد جدد عام ٧٢٦ هـ (١٣٢٦) أيام الملك الناصر محمد بن السلطان قلاوون ، وجدده مرة أخرى الأمير عبد الرحمن كتخدا · وصفه المؤرخ المقريزى :



واجهـــة مســجد وضريح السلطان قلاوون

انه دار ذات ايوانات أربع وصحن واسع ، ولما أنجزت عمارتها وقف عليها الملك المنصورى • وقال : قد وقفت هذا على مثلى فمن دونى وجعله وقفا على الملك والمملوك والجندى والأمير والكبير والصغير والحر والعبد والذكور والاناث • ورتب فيه العقاقير والأطباء وساير ما يحتاج اليه من به مرض من الأمراض ، وجعل به فراشين من الرجال والنساء لخدمة المرضى ، وقرر لهم المعاليم ونصب الأسرة للمرضى وفرشها بجميع الفرش المحتاج اليها فى المرض ، وأفرد لكل طائفة من المرضى موضعا ، فجعل أواوين المارستان الأربعة للمرضى بالحميات ونحوها ، وأفرد قاعة لمرضى الرمد ، وقاعة للجرحى وقاعة لمن به اسهال وقاعة للنساء ، ومكانا للمبردين ، يقسم بقسمين ، قسم للرجال وقسم للنساء • وجعل الماء يجرى فى جميع هذه الأماكن وأفرد مكانا لطبخ الطعام والأدوية والأشربة ، ومكانا لتركيب المعاجين والأكحال والشيافات ونحوها • ومواضع يخزن فيها الحواصل • وجعل مكانا يفرق فيه الأدوية والأشربة، ومكانا يجلس فيه رئيس الأطباء لالقاء دروس الطب ولم يحص عدد المرضى بل جعله سبيلا لكل من يرد عليه من غنى وفقير • ولم يحدد مدة لاقامة المريض به بل يرتب منه لمن هو مريض بداره سائر ما يحتاج اليه • وقد أوقف عليه الملك المنصور من الأملاك بديار مصر وغيرها ما يقارب ألف ألف درهم فى كل سنة » •

وقد عمل فى هذا المستشفى عدد كبير من أشهر أطباء مصر ، نذكر من بينهم : ابن الاكفانى محمد بن ابراهيم ، عمر بن منصور بن عبد الله السراج (ت ١٤٣١) عبد الوهاب ابن محمد تاج الدين الشاوى (ت ١٤٤٧) ، زين الدين عبد المعطى كبير جراحى المارستان ، شهاب الدين بن الصايغ ، مدين بن عبد الرحمن القيسونى وغيرهم •

وعندما زار الرحالة ابن بطوطة مصر فى عام ٧٢٧هـ /١٣٢٧ ، شاهد المارستان المنصورى ، فقال عنه : ••• « أما المارستان الذى بين القصرين عند تربة الملك المنصور قلاوون ، فيعجز الواصف عن محاسنه ، وقد أعد فيه من المرافق والادوية ما لا يحصى ويذكر أن مجباه ألف دينار كل يوم » •

وقد ذكر هذا المستشفى كثير من الرحالة الأجانب الذين وفدوا الى مصر فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر • والجدير بالذكر أن الملوك والأمراء تعهدوا هذا المستشفى الجليل بالعمارة والاصلاح والتجديد والانفاق عليه بسخاء الى أيام حملة بونابرت • وبالرغم مما أدخل على العلاج الطبى الحديث فى مصر خلال القرن التاسع عشر ، فقد استمرت أبواب هذا المارستان مفتوحة حتى بداية القرن الحالى الى مستشفى للرمد ويعرف اليوم بمستشفى قلاوون، فهو اذن أقدم مستشفيات العالم •

الناصر محمد بن قلاوون

البناء العظيم

تولى سلطنة مصر ثلاث مرات . كانت السلطنة الأولى في عام ٦٩٣ هـ (١٢٩٣)، والسلطنة الثانية في عام ٦٩٨هـ (١٢٩٩) ، والسلطنة الثالثة في عام ٩٠٧ هـ (١٣٠١) وقد دامت هذه المرة حتى عام ١٣٤١ .

كان الناصر محمد بن قلاوون يحب العمارة ، فلم يزل منذ أن قدم من الكرك بالأردن الى أن مات مستمر العمارة ، فجاء تقدير مصروفه كل يوم مدة هذه السنين ثمانية آلاف درهم وكان ينفق على العمارة المائة ألف درهم ، فاذا رأى فيها مالا يعجب هدمها كلها وجددها على ما يختار .

وننقل للقراء صفحة في حركة التعمير والبناء في عصر هذا السلطان البناء (١) وبخاصة في القاهرة :

« أنشأ الناصر محمد الميدان تحت القلعة وأجرى له المياه ، وغرس فيه النخل والأشجار ولعب فيه بالكرة في كل يوم ثلاثاء مع الأمراء والخاصكية ، وعمر القصر

(١) المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك ، القسم الثاني من الجزء الثاني ص ٥٣٧ ـ ٥٤٥ نشره وحققه الدكتور محمد مصطفى زيادة . أنظر المجلة المصرية للدراسات التاريخية المجلدان ٩ و ١٠ ص ٢٤١ ـ ٢٥٠ عام ١٩٦٠ ـ ١٩٦٢ .

الأبلق (١) وعمر الجامع بالقلعة والقاعات السبع (٢) التى تشرف على الميدان وباب القـــرافة لاجل سكنى سراريـــه وعمر المطبخ . وجعل عمائره كلها بالحجارة خوفا من الحريق وعزم أن يغير باب القلعة المعروف بالمدرج ، ويعمل له دركاه فمات قبل ذلك وعمل فى القلعة حوش الغنم وحوش البقر .. وغير ذلك فأوسع فيها نحو خمســـين فدانا وعمر الخانكاه بناحية سرياقوس ورتب بها مائة صوفى ، لكل منهم الخبز واللحم والطعام والحلوى وســـائر ما يحتـــاج اليـــه ، عمر القصور بالقرب منها ، وعمل لها بستانا حمل اليـــه الأشجار من دمشق وغيرها فصار به عامة فواكه الشام ، وحفر الخليج الناصرى خارج القاهرة (٣) حتي أوصله الى سرياقوس ،فعمر على هذا الخليج عدة قناطر : منها قنطـرة بفمه (أى فم الخليج) عند الميدان أنشأهـــا الفخر ناظر الجيش ،وقنطرة قدادار والى القاهرة وغير ذلك فصار بجانبى

(١) أنشأه الناصر محمد فى ٧١٣ هـ /١٣١٣ وانتهت عمارته سنة ٧١٤/١٣١٤ وقد اندثر القصر وكان قائما فى الجهة الغربية من القلعة.

(٢) كانت القاعات السبع بالقلعة تشرف على باب القـرافة ومكانها اليوم قصر الجوهرة (الخطط المقريزية جـ ٢ ص ٢١٢) .

(٣) أمر الناصر بحفره ليصل بين النيـل وخليج القـــاهرة (المصرى) وذلك ليزيد الماء فى هذا الخليج وكان فمه بموردة البـلاط من بستان الخشاب مارا بأراضي اللوق وبركة قرموط وباب البحـر ثم أرض الطبالة وعندها يصب الخليج ماءه فى خليج القاهرة ،، بدىء فى حفره فى أول جمادى الاولى ٧٢٥ هـ/١٣٢٥ وتم حفره في شهرين (النجوم الزاهرة ، حاشية جـ ٩ ص ٨٠) .

الخليج عدة بساتين وعمرت به أرض الطبالة بعد خرابها من أيام العادل كتبغا فى سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦/٩٧م) وبقيت خرابا الى ما بعد سنة ٧١١ هـ (١٣١١م) حتى أخذ الناس فى سكناها تدريجيا ٠

وعمرت فى أيام السلطان الناصر جزيرة الفيل وناحية بولاق بعد ما كانت رمالا ترمى بها المماليك النشاب وتلعب الأمراء فيها بالكرة فصارت كلها دورا وقصورا وجوامع وأسواقا وبساتين وبلغت البساتين بجزيرة الفيل زيادة على مائة وخمسين بستانا بعد ما كانت نحو العشرين بستانا ، واتصلت العمارة على ساحل النيل من منية السيرج الى جامع الخطيرى الى حكر ابن الأثير وزريبة قوصون الى منشأة الكتبة ومنشاة المهرانى (١) الى بركة الحبش حتى كان الانسان يتعجب لذلك ، فانه كان هذا كله تلال رمل وحلفاء فصارى لا يرى فيه قدر ذراع الا وفيه بناء ٠

وعمرت فى أيام الناصر محمد القطعة التى فيما بين قبة الامام الشافعى الى باب القرافة (٢) بعد ما كانت فضاء

(١) كان موضع هذه المنشأة فيما بين النيل والخليج المصرى ، عرفت هذه الخطة باسم الامير سيف الدين بلبان المهرانى وكان قد شيد دارا بها ثم اقبل الناس فى البناء وأكثروا فيها من العمائر فعمرت الخطة .

(٢) أحد أبواب القلعة (الخطط جـ ٢ ص ٢٠٤) وهو خلاف باب القرافة من أبواب القاهرة الخارجية القديمة الذى كان يخرج منه أهل القاهرة الى قرافة الامام الشافعى وكان باب القرافة بسور القلعة القبلى بين البرجين المعروفين ببرج المطار وقد سد من الخارج فى أيام العثمانيين .

لسباق خيل الأمراء والأجناد والخدام ، فتحصل به اجتماعات جليلة للتفرج عليهم الى أن أنشأ السلطان تربة الأمير بيبغا التركماني • فعمر ذلك كله تربا وخوانك حتى صارت العمائر متصلة من باب القرافة الى بركة الحبش لا يوجد بها قدر ذراع بغير عمارة وتنافس الأمراء فى ذلك حتى بلغوا فى عمارته مبلغا عظيما •

وعمر فى أيامه أيضا الصحراء التى فيما بين القلعة وخارج باب المحروق الى قبة النصر وكان هناك ميدان القبق من عهد الظاهر بيبرس برسم ركوب السلطان وعمل الموكب به وبرسم سباق الخيل وأول من عمر فيه الأمير قراسنقر تربة وعمل لها حوض ماء للسبيل (يعلوه مسجد) ثم اقتدى به الأمراء والأجناد وغيرهم حتى امتلأ الميدان من كثرة العمائر •

وعمر السلطان لمماليكه عدة قصور : منها قصر الأمير طقتمر الدمشقى بحدرة البقر (١) وبلغ مصروفه ثمانمائة الف درهم فلما مات طقتمر أنعم به السلطان على الأمير طشتمر حمص أخضر فزاد فيه • ومنها قصر الأمير بكتمر الساقى (٢) على بركة الفيل فعمل أساسه أربعين ذراعا

(١) هو بذاته بيت طشتمر الساقى حمص أخضر وكان واقعا بالمنطقة التى تحد اليوم من الغرب بشارع الحلمية وقد أزيل القصر وملحقاته •

(٢) كان قصر بكتمر من أعظم مساكن مصر وأجلها قدرا وموضعه على بركة الفيل تجاه الكبش (الخطط المقريزية جـ ٢ ص ٦٨) •

وارتفاعه من الأساس مثلها فزاد مصروفه على ألف ألف درهم ومنها الكبش حيث كانت عمارة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فعمله السلطان سبع قاعات برسم نزول بناته وسراريه فيها للتفرج على ركوب السلطان الى الميدان (الناصرى) الكبير ولم ينحصر ما أنفق فيهـــا لكثرته . ومنها اسطبل الأمير قوصون بسوق الخيل تحت القلعة حيث كان اسطبل الأمير سنجر البشمقدار واسطبل سنقر الطويل ومنها قصر بهادر الجوبانى (١) بجوار زاوية البرهان الصائغ بالجسر الأعظم تجاه الكبش ومنها قصر قطلوبغـــا الفخـــرى (٢) وقصر الطنبغـــــا الماردينى وقصر يلبغـــا اليحياوى (٣) وهو أجل ما عمره من القصور صرف عـلى أساسه ثمن جير وحجر وأجرة مائة وثلاثين ألف درهم وعمل نزوله فى الأرض ثلاثين ذراعا واحتيج فيه الى زنة عشرة آلاف درهم لا زورد لدهان سقوفه ثمنها مائة ألف درهم .

وعمر الأمراء فى أيام السلطان الناصر عدة دور : منها

---

(١) اندثر هذا القصر وكان واقعا فى الجهة الغربية من جـامع لاجين اللالا المعروف بجامع أبى سعيد جقمق بشارع عبد المجيد سليم بالسيدة زينب .

(٢) يرجح ان هذا القصر كان بحارة برجوان بالقرب من جـامع زين الدين عبد الباسط بن خليل وقد اندثر .

(٣) أمر الملك الناصر محمد ببناء هـــذين القصرين للاميرين المذكورين لمحبته لهما وليكونا بالقرب من قلعة الجبل . شيدهما مكان سوق الخيل بالرميلة تحت القلعة ، وفى ٧٥٧ هـ / هـــدم السلطان حسن بن محمد هذين القصرين وادخل أرضهما فى مسجده الكبير .

دار الأمير ايدغمش أمير آخور (١) ودار أقبغا ودار طقزدمر ودار بشتاك على النيل وهى تشتمل على ربع كبير فوق زريبة بجوار جامع طيبرس وقصر بشتاك بالقاهرة (٢) .

وأنشأ السلطان الناصر محمد الميدان الكبير على النيل وخرب ميدان اللوق الذى أنشأه الظاهر بيبرس وعمله بستانا حملت اليه الأشجار من دمشق وغيرها فكانت فواكهه تحمل الى الشراب خاناه السلطانية . ثم أنعم به على الأمير قوصون فبنى تجاهه على الزريبة المعروفة بزريبة قوصون ، واقتدى به الأمراء فى العمارة فأخذ قوصون بستان بهادر رأس نوبة ومساحته خمسة عشر فدانا وحكره للناس ، فبنوه دورا ، وعرف بحكر قوصون . وحكر السلطان حول البركة الناصرية أراضى البستان ، فعمره الناس وسكنوا فيه وحكر الأمير طقزدمر بجوار الخليج بستانا مساحته ثلاثون فدانا وبنى له قنطرة عرفت به وعمل هناك حماما وحوانيت فصار حكرا عظيما للمساكين . وحكر الأمير آقبغا عبد الواحد بستانا بجوار بركة الفيل فعمر عمارة كثيرة بعد ما كان مقطع طريق فصار قدر مدينة كبيرة

---

(١) موقع هذه الدار فى الجزء الشرقى من مسجد السلطان حسن وقد اندثرت .

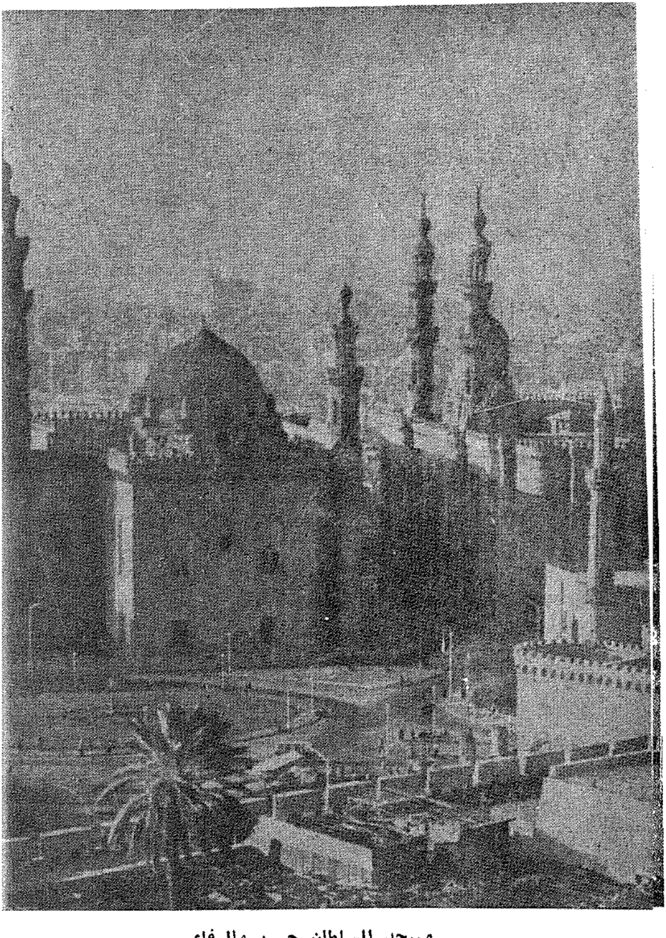
(٢) مازال جزء من هذا القصر باقيا بالنحاسين ، بناه الامير بشتاك في سنة ٧٣٥ هـ واتمه بعد ثلاث سنوات وكان ارتفاعه أربعين ذراعا والماء يجرى من اعلاه وله شبابيك تشرف على شارع القاهرة الأعظم .

وأخذ بقية الأمراء جميع ما كان من البســاتين والجنينــات ظاهر القاهرة وحكروها • وحكرت الدادة حدق (المعروفة باسم) ست مسكة القهرمانة حكرين عرفا بها ، فجاءا من أحسن الأحكار وأنشأت بكل واحد منهما جامعا تقــام به الجمعة • فأنافت الأحكار التي استجدت في أيامه على ستين حكرا حتى لم يوجد موضع يحكر ، واتصلت العمارات من خارج القاهرة الى جامع ابن طولون والمشاهد •

وفى أيام الناصر محمد عمر الأمير قوصون بالقاهــرة وكالة حيث كانت دار تعويل البوعــــانى (١) وعمر الأمير طشتمر حمص أخضر ربعا بجوار حدرة البقر وهو الذى عمر قيسارية الحريريين بجوار الوراقين من القاهــــرة • وعمر الأمير بكتمر الساقى بمدينة مصر ربعين ، وحوانيت على النيل ودار وكالة ومطابخ ســـكر • وعمر الأمير طقزدمر دار التفاح خارج باب زويلة والربع الذى فوقه •

وتجددت عدة جوامع فى أيامه أنافت على ثلاثين جامعا : منها الجامع الناصرى بقلعة الجبل ، والجامع الجديد الناصرى

(١) ورد وصف لهذه الوكالة التى بناها الامير قوصــبون فى الخطط للمقريزى جـ ٢ ص ٩٣ جاء فيه ان هـــذه الوكالة فى معنى الفنادق والخانات ينزلها التجار ببضائع الشام من الزيت السيرج والصابون والدبس والفستق والجوز ــ ونحو ذلك وموضعها فيما بين الجامع الحاكمى ودار سعيد السعداء وكانت أخيرا تعرف بدار تعويل النوعانى فخربها وماجاورها الامير فوصون وجعلها فندقا كبيرا الى الغاية وبدائرة عدة مخازن •



مسجد السلطان حسن والرفاعى

ظاهر مصر على النيل ، وجامع المشهد النفيسى وجامع الأمير كراى المنصورى بآخر الحسينية وجامع الامير طيبرس نقيب الجيش على النيل بجوار خنكاته . وهو الذى عمر أيضـــا مدرسة بجوار الجامع الأزهر بالقاهرة وجامع الأمير بدر الدين محمد بن التركمانى بالقرب من باب البحر ، وجامع الفخر ناظر الجيش على النيل فيما بين بولاق وجزيرة الفىل . وقد عمر جامعا آخر خلف خص الكيالة ببولاق وجامعا ثالثا بالروضة ، وجامع كريم الدين خلف الميدان ، وجامع شرف الدين الجاكى بسويقة الريش وجامع الأمير حسين بالحكر(١) وبنى له قنطرة على الخليج،وجامع الأمير قيدان الرومى بقناطر الوز وجامع دولت شـــاه مملوك العلائى بكوم الريش (٢) وجامع الأمير جمال الدين أقوش نائب الكرك بطرف الحسينية وجامع ناصر الدين الحرانى الشربينى بالقرافة وجامع الأمير أقسنقر شاد العمائر قريبا من الميدان وجامعا خـــارج باب القرافة عمره جماعة من العجم وجامع التوبة بباب البرقيـة عمره مغلطاى أخو الأمير الماس وجامع بنت الملك الظاهر بيبرس بالجزيرة المستجدة وعمر ما حوله أملاكا كثيرة ، وجـــامع الأمير الماس فى الحلمية القديمة وجامع أخى صاروجا بشـون القصب ، وجامع الحاج آل ملك بالحسينية وجامع الأمير بشتاك

---

(١) حكر جوهر النوبى (النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ٢٠٢ حاشية ٥) .

(٢) ورد هذا الجامع باسم جامع كوم الريش فى خطط المقريزى جـ ٢ ص ٣٢٥ .

على بركة الفيل تجاه خانكاه ، وجامع ست حدق فيما بين قنطرة السد (١) وقناطر السباع ، وجامع ست مسكة قريبا من قنطرة آقسنقر وجامع الامير الطنبغا الماردينى بالتبانة ، ومسجد مظفر الدين بن الفلك بسويقة الجميزة من الحسينية وجامع جوهر السحرتى (٢) قريبا من باب الشعرية وجامع فتح الدين محمد بن عبد الظاهر بالقرافة .

الواقع انه لثبت فخم من العمائر التى رصعت القاهرة فى أيام هذا العاهل !

---

(١) الست حدق والست مسكة اسمان لسماة واحدة . والست حدق كانت تعرف أولا بهذا الاسم فقط وقد انشأت الجامع المعروف باسمها هذا سنة ٧٣٧ هـ «فلصق به ثم اشتهرت لسبب ما بعد هذا باسم الست مسكة . فعرف الجامع الثانى بهذا الاسم الثانى وكان بناؤه سنة ٧٤١ هـ (الخطط المقريزية جـ ٢ ص ٣١٣ و ٣٢٦) .

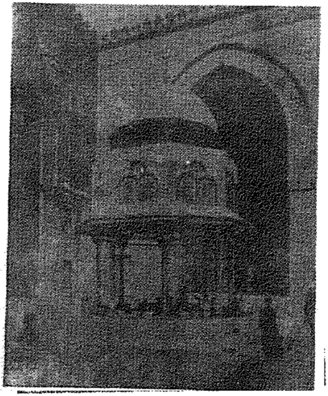
(٢) الثابت من اللوحة التذكارية بباب هذا الجامع أنه بنى سنة ٧٤٣ هـ أى بعد وفاة الناصر بسنتين على ان ذلك لايمنع من أن بناءه بدىء فى عهد هذا السلطان (النجوم الزاهرة حاشية محمد رمزى جـ ٩ ص ٢٠٩) .

مدرسة السلطان حسن بن قلاون

جوهرة المدارس

اعتلى السلطان حسن العرش للمرة الأولى فى ستة ٧٤٨ هـ (١٣٤٧) ، وعزله أمراؤه فى عام ٧٥٢ هـ ، لكنه استطاع خلع أخيه واستعاد عرشه فى عام ٧٥٥ هـ وبقى حاكما حتى ٧٦٢ هـ (١٣٦١) ، ولم يكن حسن محبوبا أو جديرا بالحكم ولكنه خلف عمارة جليلة خلدت اسمه،هى تلك المدرسة / المسجد خير أبنية المماليك جميعا وهى مدرسة السلطان حسن .

انه أجمل مساجد القاهرة ، شيد على نظام المدرسة . وكان موضعه بيت الأمير يلبغا اليحياوى وابتدأ السلطان عمارته فى سنة سبع وخمسين وسبعمائة وعمله فى أكبر قالب وأحسن هندام وأضخم شكل فلا يعرف فى بلاد



صحن مدرسة مسجد السلطان حسن بالقلعة (١٣٥٦ - ١٣٦٢)

الاسلام معبد من معابد المسلمين يحكى هذا الجامع . أقيمت العمارة فيه مدة ثلاث سنوات بدون عطلة يوم واحد وأرصد لمصروفه كل يوم عشرون ألف درهم (ستمائة جنيه) ، ولقد قيل أنه صرف على القالب الذى بنى عليه عقد الايوان الكبير مائة ألف درهم وذراع هذا الايوان خمس وستون ذراعا فى مثلها ، ويقال انه أكبر من ايوان كسرى بالمدائن فى العراق بخمسة أذرع وقبته العظيمة لم يبن بديار مصر والشام والعراق والمغرب واليمن مثلها وكذلك المنبر الرخامى الذى لا نظير له والبوابة العظيمة وقد عزم السلطان على أن يبنى أربع منائر يؤذن عليها فتمت ثلاث منها الى أن كان يوم السبت السادس من شهر ربيع الآخر سنة ٧٦٢ هـ فسقطت المنارة القريبة من المدخل فهلك تحتها نحو ثلثمائة نفس فأبطل السلطان بناء هذه المنارة ونظيرتها ، ولما سقطت المنارة لهجت عامة مصر والقاهرة بأن ذلك منذر بزوال الدولة فقال الشيخ بهاء الدين أبو حامد بن على بن محمد السبكى فى سقوطها :

أبشر فسعدك يا سلطان مصر أتى
بشيره بمقال سار كالمثل
ان المنارة لم تسقط لمنقصة
لكن لسر خفى قد تبين لى
من تحتها قرىء القرآن فاستمعت
فالوجد فى الحال أداها الى الميل

واتفق أن قتل السلطان بمكيدة دبرها بعض كبار أمرائه بعد سقوط المنارة بثلاثة وثلاثين يوما ومات قبل أن يتم رخام هذا الجامع فأتم قسما منه بشير الجمدار (١)٠

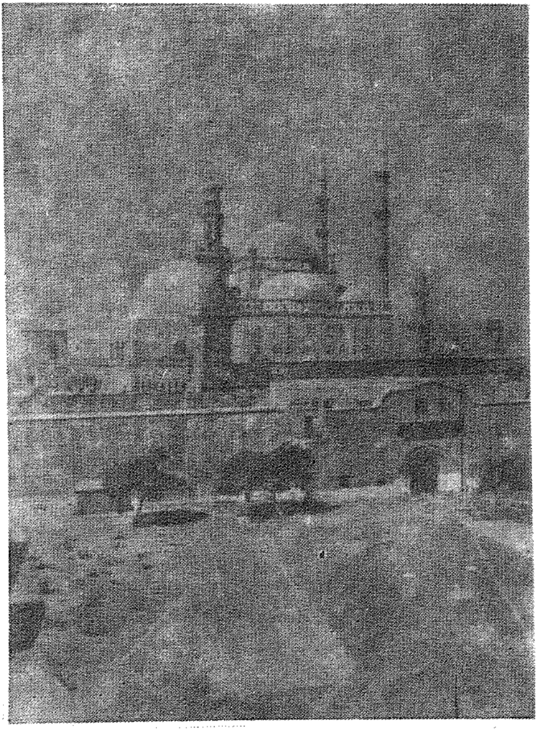
ويبلغ ارتفاع جدران هذا المسجد ١١٣ قدما مبنية بالحجارة المنحوتة الكبيرة المأخوذة من أنقاض الأهرام وتحلى النوافذ العديدة واجهته الممتدة ٠ وأجمل مظاهر الجامع طنفه الفخم المكون من ست وصلات من المقرنصات واحدة تعلو الأخرى ويتوجه جدرانه الشامخة بينما تزين مدخل الجامع تلك النقوش القوية والزخارف الهندسية والأعمدة ذوات التيجان المقرنصة ٠

ولا يقل داخل الجامع أبهة ورونقا عن خارجه ، فالكتابات الكوفية والعربية المنقوشة على الجدران تزينه وتزيده حسنا وجمالا ، فى مقصورة القبر كتبت آية الكرسى بالكوفية على الجدران الاربعة على ألواح الخشب الثمين ، وتعلو المقصورة القبة الجديدة وهى ليست بقبة الجامع الأصلية ، فقد تهدمت فى عام ١٦٦٠ وكان قد وصفها « بيتروديلافالى » الرحالة لما زار القاهرة عام ١٦١٦ م ٠

هذا وأكثر مشكاواته النحاسية ومصابيحه الزجاجية

---

(١) كشف الاستاذ حسن عبد الوهاب فى نوفمبر ١٩٤٤ عن اسم مهندس هذا المسجد ، محمدين بيلبك مكتوبا فى الطراز الجصى بالمدرسة الحنفية ٠ تاريخ المساجد الاثرية ج ١ ص ١٧٦ — ١٨١ ٠



مئذنة مسجدى الناصر محمد بن قلاوون ومحمد على

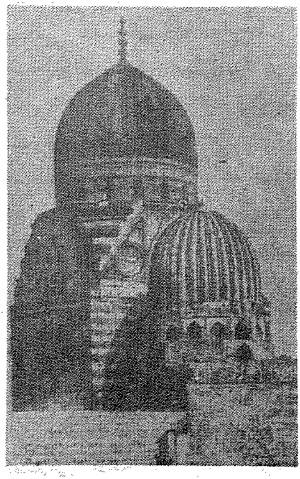
المطلية بالميناء لا تزال محفوظة فى متحف الفن الاسلامى ، ولما شرع السلطان الملك المؤيد شيخ فى عمارة جامعه بجوار باب زويلة اشترى باب الجامع النحاسى ونقله الى جامعه عام ٨١٩هـ / ١٤١٦ .

وكان هذا الجامع مقاوما لقلعة الجبل فقلما تكون فتنة بين زعماء الدولة حتى يصعد الى سطحه عدة أمراء وغيرهم ويبدأ الرمى منه على القلعة فلم يحتمل ذلك الملك الظاهر برقوق وأمر بهدم الدرج الذى كان يصعد منه الى المنارتين ويصل الانسان من هذا الدرج الى السطح الذى كان يرمى منه على القلعة وهدمت البسطة العظيمة والدرج الذى كان بجانبى هذه البسطة أمام باب الجامع حتى لا يمكن الصعود اليه وسد من وراء الباب النحاسى وفتح شباك من شبابيك أحد مدارس هذا الجامع الأربعة وامتنع صعود المؤذنين الى المنارتين وبقى الأذان على درج هذا الباب ومع ذلك فقد استمر الجامع مركزا للمناوشات وتبادل الطلقات لفترة طويلة ولا تزال آثار بعض « الجلل » باقية عليه للآن وقد ذكر « ستانلى لين بول » أن احدى مأذنتى الجامع كانت تتصل بسور القلعة بحبل كان يلعب « بهلوان أوروبى » تسلية للجماهير التى كانت تفد لمشاهدة مخاطراته . ومع كل ما مر بهذا الجامع الخالد من الحوادث والذكريات والسنين والأيام لم يزد الا عظمة ووقارا بالرغم مما ظهر على وجهه من ملامح الشيخوخة . وهو لا يزال أثمن وأفخر أثر اسلامى خلفه لنا أبناء القرن الرابع عشر .

بناءو المماليك الجراكسة

(١٣٨٢ - ١٥١٧)

بالرغم من أصل هؤلاء المماليك وأنهم كانوا رقيقا اشتراهم السادة من أسواق الرقيق ، فقد أظهروا فى معيشتهم صفات كثيرة نبيلة منها حبهم لبناء العمائر الجميلة فدلوا على ذوق سليم ورفاهية بالغة . فكان برقوق والمؤيد وجقمق وقايتباى والغورى مولعين بمجالس العلم والأدباء فضلا عن شغفهم بالعمارة ، شيدوا المساجد



قبة سودون أمير مجلس بقرافة المماليك القبلية

والمدارس والمستشفيات وغيرهـــا من القباب والاضرحة الجميلة التى ما زالت تزدان بها القاهرة ٠

وسنعرض الآن ما بناه كل من هؤلاء البنائين المماليك من سلاطين وأمراء وسراة : يقابلنا الملك الظاهر أبو سعيد برقوق أول ملوك الجراكسة ٠ كان مملوكا للأتابك يلبغـا فأعتقه وعينه فى كثير من المناصب ، ومنذ ذلك الحين ابتسم له الحظ حتى ولى ملك مصر سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢) وظل ملكا حتى توفاه الله سنة ٨٠١ هـ (١٣٩٩) ٠ وأهم ما بناه المسجد الذى يعرف باسمه وهو ملاصق لمدرســة الناصر محمد بن قلاوون من الجهة الشمـــالية ٠ وقد تآلفت من واجهتيهما ومن واجهة تربة ومدرســة السلطان قلاوون مجموعة نبيلة من أجمل المبانى الاثرية فى القاهرة ! ففى الطرف البحرى منها مئذنة ضــخمة متناسبة الابعـاد لبست دورتها الوسطى بقطع من الرخام ٠ والمسجد مشيد على أسلوب المدرسة المتعامد وتطل ايواناته الاربعــة على صحن مكشوف وأكبرها ايوان المحراب ٠ وتعلو التربة قبة ذات أركان مقرنصة غاية فى الاتقان ٠ والمعروف أن برقوق لم يدفن فى هذه التربة بل دفن فى احـدى ترب خانقاه ابنه فرج بن برقوق ٠

خانقاه الناصر فرج بن برقوق (١٤٠٠ ـ ١١)

بدأ فى بنائها الملك الناصر فرج ابن برقوق ، (ولد

سنة ١٣٨٩ م واستقر فى الملك بعهد من أبيه في يونيـو سنة ١٣٥٨ وحكم حتى قتل فى سنه ١٤١٢)، سنه ٨٠١هـ (١٣٩٨/٩٩) وانتهى منها سنة ٨١٣ هـ (١٤١٠/١١) وهى بناء ضخم لا يقتصر على تربة ، بل وضع تصميمهـا ونفذ على أن يخدم أغراضا هامة متعددة ، فهى مدرسـة تدرس فيها العلوم الشرعية ومسجد جامع فسيح الأرجـاء وتربة لآل برقوق ، وخانقاه فخمة • استغرق بناؤها حوالى الاثنتى عشرة سنة • وبلغ من اهتمام الناصر فرج بهـا أنه جعل ما حولها مدينة أخرى عامرة بأسواقها وخاناتها وحماماتها ولكنه مات قبل أن يدرك كل غايته (١) •

ففى طرفى هذه المجموعة البحرى والقبلى سـبيلان يعلوهما مكتبان أنيقان لتحفيظ الأبناء اليتامى القـرآن • ومما يزيد الواجهة الغربية جمالا مئذنتان تقوم احداهما على يمين المكتب البحرى والأخرى على يسار المكتب القبـلى • أما الواجهة الشرقية فتتكون من قبتين شامختين متماثلتين رسما وحجما تكتنفان طرفى هذه الواجهة وتتوسطهما قبة ثالثة أصغر منهما حجما تعلو المحراب • وقد حليت أسطح القباب بنقوش بارزة متعرجـة على شكل دالات نقشت فى الحجر •

وقـد دفن بالقبـة البحرية الملك الظاهر برقوق

---

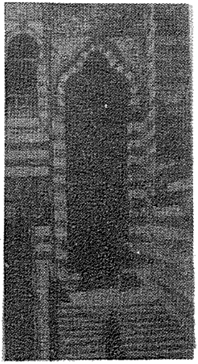
(١) محمود أحمد : دليل موجز لأشهر الآثار العربية بالقاهرة ، ص ١٥٠ ـ ١٥٢ •

(ت ٨٠١ هـ) وأولاده ومنهم المنصـــور عبد العـــزيز (ت ٨٠٩ هـ) · وفى القبة القبلية ابنة النـــاصر فرج (ت ٨٨٧ هـ) وخوند حريز (ت ٨١١ هـ) ·

وللسلطان فرج بن برقوق زاوية تقع على رأس تقاطع شارع تحت الربع بقصبة رضوان ، بناهـــا جمال الدين يوسف الاستادار بأمر السلطان سنة ٨١١ هـ (١٤٠٨) وقد لحق بهذه الزاوية سبيل جميل ·

السلطان البناء المؤيد شيخ

وهـــذا واحد آخر من بناة القاهـــرة : الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودى الجركسى الأصـــل · قدم الى



باب المسجد لضريح السلطان قايتباى

القاهرة فى أول سنة ٧٨٣ هـ فاشـــتراه محمود اليزدى تاجر المماليك ولذلك عرف بالمحمودى وقدمه الى الظاهر برقوق وقت أن كان أتابكا فأعتقه وعلمه الفروسية وعينه فى جملة وظائف .. وفى عام ٨١٥ هـ (١٤١٢) ولى ملك مصر وبقى به الى أن توفاه الله فى يناير سنة ١٤٢١ .

يقوم مسجده الجليل بجوار باب زويلة وفى شـارع السكرية واستغرق بناؤه خمس سنوات ، من عام ١٤١٥ الى ١٤٢٠ ، وكان له مكتبة قيمة ومدرســـون لتدريس العلوم الدينية . يمتاز بمئذنتيه المنفصلتين عنه ، فهمـــا تقومان على بدنتى باب زويلة ، وتقوم واجهة الجامع القبلية على أساس السور القبلى . وواجهته الشرقية هى الواجهة الرئيسية ، وفى نهايتها البحرية سلم يؤدى الى مدخـــل جميل محلى بالرخام ، والكتـــابات الكوفيـــة ، ومغطى بالمقرنصات . وينتهى المدخل بباب يؤدى الى « دركاة » سقفها مقبى ، وفى جدارى الدركاة البحرى والقبلى ، بابان متقابلان ، أحدهما يؤدى الى حجرة بهـــا المقبرة التى دفن بها السلطان وبعض أفراد أسرتـه ، ويعلو المقبرة قبـــة سطحها الخارجى محلى بزخارف على شكل دالات . وبالجانب القبلى للمقبرة باب يوصل الى الايوان الشرقى للجـامع . وجزء من جدران هذا الايوان مكســـيا بوزرة جميلة من الرخام تعلوها كتابات ونقوش مذهبة تصل الى السقف ، وبه محراب يجاوره منبر لطيف الصنعة . وسقف هـذا

الايوان محمول على عقود تتكىء على أعمـده من الرخام ٠

وسبب بناء هذا الجامع فى مكانه المعروف ، يرجع الى أن شيخ المحمودى كان قد حبس أثنـاء تمرده ضـد السلطان فرج فى سجن يكون جزءا من السور الفاطمى ، وقاسى العذاب فيه ، فلما أصبح سلطانا أمر بهدم السجن وشيد محله مسجده الكبير الذى يزين الحى بأكمله !

وللملك المؤيد بيمارستان شيده فيما بين (١٤١٨ ـ ١٤٢٠) بدرب اللبان ، فى المكان الذى عرف قديما بالصوة تجاه طبلخانة قلعة الجبل حيث كانت مدرسـة الأشرف شعبان بن حسين التى هدمها الناصر فرج بن برقـوق ٠ ويقوم باب البيمارستان الآن حيث كان باب المدرسة ٠ أنشأه الملك المؤيد شيخ وعملت مصاريفه من أوقاف جامع المؤيد الذى كان شيده ٠ ولما توفى المؤيد (٨٢٤ هـ) تعطل البيمارستان قليلا ثم سكنه طائفة من العجم وصار منزلا للرسل الوافدين من خارج البلاد الى السلطان ثم عمل فيه منبر ورتب له خطيب وامام ومؤذنون وبواب وقومة وأقيمت به الجمعة فى عام ٨٣٥ هـ (١٤٢٣) فاسـتمر منذ ذلك الحين مسجدا ٠ وبنى السلطان حماما بالقرب من المسجد عرف بحمام السلطان المؤيد (١٤٢٠) ٠

البناء السلطان برسباى

هو السلطان الملك الأشرف برسـباى أحد مماليك

الظاهر برقوق ، ولى مصر سـنة ١٤٢١ وتوفى فى سنة ١٤٣٧ ودفن بتربته بالقرافة الشرقية ٠

أما مسجده ففى الأشرفية بالقرب من الصاغة وتتكون واجهته الشرفية الكبيرة من سبيل وكتاب وباب تجاوره مئذنة ، والباب الرئيسى مغشى بالنحاس المخرم المزخرف وتصميم المسجد على منال المدارس المتعامد ، وتطل أواوينه الأربعة على صحن مكشوف ٠

أما مدفن الاشرف برسـباى ففى الفرافة الشرفية جنوبى خانقاه وتربة السلطان برقوق ويتوصل اليه من سلم يؤدى الى مدخل تعلوه مئذنة جددت حدينا ٠ ويلاحظ ان أعمال الرخام فى المدفن تفوق نظيرها حتى فى ضريح السلطان قايتباى ، وأمام المحراب تركيبة من الرخام فوق التربة التى دفن فيهـا الأشرف برسـباى مع زوجه ٠ ولبرسباى مسجد كبير بالخانكاه ٠

مسجد ومدرسة جوهر اللالا :

يقوم هذا المسجد على ربوة عالية شمالى مسـجد الرفاعى ، وهو مع المبانى الأثرية المجاورة المتناسقة تزين حقا ميدان صلاح الدين ٠ أنشـأه الأمير جوهر اللالا من أمراء الأشرف برسباى قبل توليه حكم مصر ٠ يقوم على قطعة أرض غير منتظمة الشكل ، وقد عرف مهندس الجامع كيف يفيد من تلك المساحة ، فأنشأ عليها مسجدا ومدرسة

وسبيلا وميضأة ومقبرة . يدخل الزائر اليه من الباب الى دركاة مربعة بصدرها صفة مفروشة بالرخام ، سقفها مموه بالذهب والألوان . وعلى يمين هذه الدركاة باب السبيل والمدرسة ، والى اليسار باب آخر يؤدى الى ممر مستطيل ينتهى بباب يوصل الى داخل المسجد ، وهو مشـــيد على طراز المدارس ، به أربعة ايوانات ، اثنان منها كبيران ، والآخران صغيران .. وفى الناحية القبـلية الشرقية قبة صغيرة بها قبر المنشىء .

مساجد

القاضي زين الدين يحيى

ولد الأمير زين الدين يحيى بمصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، فنشأ بها وتدرب فى وظائف الدولة وتدرج فيها الى أن عين ناظرا لديوان المفرد (الخاصة) غير مرة ، ثم عين ناظرا للاسطبل السلطانى ، ومحتسبا للقاهـــرة (محافظا) . وفى دولة السلطان الظاهر جقمق تنكرت له الدنيا ، فنكب وعذب واستخلصت منه أموال كثيرة وقاسى أهوالا شديدة ، ثم أرسل الى المدينة الشريفة فبقى بهــا أشهرا عاد بعـدها الى مصر ولزم بيته . ولمـــا ولى الملك الأشرف قايتباى ملك مصر صادر أمواله أيضا ، وحبسه بالقلعة الى أن توفى ليلة الخميس ٢٨ ربيع الأول ســـنة ٨٧٤ هـ (١٤٦٩) وقد تجاوز الثمانين من عمره ودفن بمسجده الذى سنتكلم عنه ، وهذا المسجد يقع فى شارع

الأزهر عند تلاقيه بشارع الخليج المصرى وقد تجلت فى واجهته الجنوبية دقة الصناعة ٠

أنشىء المسجد سنة ٨٤٨ هـ (١٤٤٤) وهو من المساجد التى تحفل بشتى الصناعات الجميلة وله ثلاث واجهات : شرقية وبطرفها القبلى مدفن للمنشىء وبطرفها البحرى المئذنة الرشيقة ذات الدورات الثلاث : وواجهة بحرية تتكون من باب للميضأة المنخفضة عن مستوى الشارع ويجاوره الباب الرئيسى للمسجد ، وواجهة قبلية كشفت فى أعقاب فتح شارع الأزهر وكانت مهدمة ، فعنيت بها ادارة حفظ الآثار العربية واعادتها الى ما كانت عليه ، وفى هذه الواجهة باب حافل بالنقوش والكتابات والمقرنصات (١) ٠ ويقع المسجد الثانى للقاضى زين الدين يحيى بشارع الخضرا ببولاق وعرف بجامع المحكمة ، لاتخاذه محكمة منذ القرن العاشر الهجرى حتى القرن الثالث عشر ٠ وقد بناه فى عامى ١٤٤٨ و ١٤٤٩ وافتتح للصلاة فى سنة ٨٥٢ هـ (١٤٤٨) قبل الفراغ من بنائه ٠ ولهذا المسجد ثلاث واجهات رئيسية مبنية بالحجر ، يتوسط كلا منها باب : القبلى والبحرى منهما متماثلان ، واختلف الغربى عنهما ، وقد اشتملت تلك الأبواب على مقرنصات منوعة ، وزخارف هندسية وتطعيم بالرخام الملون ، وكتابات تاريخية ٠

---

(١) حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الاثرية ، جـ ١ ص ٢٣٤ — ٢٤٢ ٠

أما المسجد الثالث لهذا القاضى فيقع بالحبانية • وفد فرغ من بنائه فى شهر جمادى الآخرة سنة ٨٥٦ هـ (١٤٥٢) • ولهذا المسجد واجهة بحرية تشتمل على الباب ويقوم على يمينها منارة حجرية يجاورها كتاب ، وقد عنيت لجنة حفظ الآثار العربية بهذا المسجد فأصلحته اصلاحا شاملا فى عام ١٩٠٧ فأعادت اليه بهاءه السابق •

السلطان البناء قايتباى
(١٤٦٨ ـ ١٤٩٥)

كانت السنوات الست الأولى من حكم السلطان قايتباى يسودها الأمن والهدوء ، فاستطاع قايتباى أن يشبع ميله الى البناء ، ويرجع الى هذا العهد مسجده ، وضريحه وسبيله فى القرافة الشرقية (١٤٧٢ ـ ١٤٧٤) • ثم هناك حوضه ، ومقعده ، وربعه ، وسبيل آخر ، وحوض آخر (١٤٧٤ ـ ٧٥) ثم مدرسته الفخمة بقلعة الكبش (١٤٧٥) ، ومسجد آخر ، وخانات ، وقصور أخرى نجا بعضها من التدمير • أصف الى هذا ما أمر بتجديده واضافته فى مبانى الأزهر ، وقلعة الجبل • وقد رغب الأمراء الكبار فى بلاط قايتباى أن يقلدوا مولاهم فخلقوا لنا مجموعة من العمائر الجميلة التى رصعوا بها القاهرة ونذكر منها مساجد الأمير قجماس الاسحقى ، وأبى بكر مزهر ، وأزبك اليوسفى وأزبك بن ططخ الذى هدمت أزبكيته لتفسح مكانا لدار الأوبرا فى سنة ١٨٦٩ •

ان طائفة مباني السلطان قايتباى فى القرافة الشرقية تشتمل على أجمل الخصائص والميزات المعمارية التى تتسم بها عمارة دولة المماليك ، وما بلغته من السمو والرقى ٠٠ وليس هذا الأثر مسجدا فحسب ، بل انه مجموعة مؤلفة من مدرسة وضريح وسبيل ، شيدت كلها فى انســـجام وتناسق وجمال في داخلها وخارجها ٠ أما المئذنة فتعتبر من أجمل مثيلاتها فى القاهرة ـ فى رشاقتها الجذابة وهى من ثلاث دورات ، حلى بدن دورتها الأولى بنقوش وكتابات، وحلى بدن الدورة الثانية بنقوش مورقة ، وتقوم الدورة الثالثة على عمد رقيقة ٠

وواجهة المسجد الرئيسية هى الواجهة البحرية وبها الباب الذى حلى بالرخام الملون والكتـــابات ، وكتب على جانبيه اســـم قايتبـــاى وتاريخ عام ٨٧٧ هـ ٠٠ وتعلوه دائرتان رخاميتان كتب فيهما : « عز لمولانا السلطان الملك الأشرف قايتباى٠٠عز نصره » ٠ وعلى يسار الباب سبيل تعلوه المدرسة ٠ ولهذا المســـجد الأنيق أربعة ايوانات معقودة تطل على الصحن ، ويغطيه سقف يتوســطه منور نقش بزخارف ملونة ومذهبة ٠

وشيد قايتباى مدرسة بالكبش (٨٨٠ ـ ١٤٧٥) ، ولها بابان كبيران ، نقش على أحدهما : أمر بانشاء هذه المدرسة المباركة سيدنا ومولانا الأشرف الســلطان الملك أبو النصر قايتباى » ، ونقش على الباب الثانى كتابة مثلها٠

وهناك كتابة نقشت على الطنف الداخلى نصها : « أمر بانشاء هذه المدرسة المباركة سيدنا ومولانا السلطان الملك الأشرف قايتباى أعز الله أنصاره ، وكان الفراغ من ذلك فى مستهل شهر شعبان المبارك سنة ٨٨٦ من الهجرة النبوية » .

وهناك فى شارع شيخون بالصليبة شيد السلطان قايتباى سبيلا جميلا تعلوه كتابات نصها : « أمر بانشاء هذا السبيل المبارك السعيد من فضل الله تعالى وجزيل عطاء العميم مولانا المقام الشريف السلطان المالك الملك الأشرف أبو النصر قايتباى بتاريخ شهر ذى الحجة سنة أربع وثمان مائة » . يعلو السبيل كتاب لتعليم الاطفال وتحفيظهم القرآن ، ويعتبر هذا السلطان أول من أفرد السبيل والكتاب عن المدرسة أو المسجد ، ولهذا السبيل واجهتان شامختان كسيتا بالرخام الملون ويعتبر من أجمل أسبلة مصر .

أمراء السلطان قايتباى البناءون

يقابلنا فى طليعة هؤلاء : الأمير يشبك الدواداز ، وقد شغل أسمى مناصب دولة قايتباى وقد شغف مثل سيده بالعمارة ، وله مآثر فى اصلاح الآثار وتنظيم الطرق وتوسيعها وبناء القصور والقباب ، كما كان منقبا فى المسائل العلمية ، وتوفاه الله سنة ٨٨٥ هـ (١٤٨٠) . من مبانيه القبة الجميلة بكوبرى القبة ، أنشأها سنة

٨٨١ هـ / ٨٢ (١٤٧٦ ـ ٧٧ م) كما أنشـــأ بجوارها مدرسة وبستانا كبيرا جعلها من أبهج متنزهات القاهرة وقد حضر الملك الأشرف قايتباى حفلة افتتاح تلك المنشئات (يوليو ١٤٧٨) ، فأعجب بها وأثنى على منشئها ٠

ولم يبق الآن من تلك المبـــانى سوى قبة كسيت جدرانها بوزرة من الرخام الجميل المتنوع الألوان وتنتهى بافريز كتب عليه بالخط الكوفى المزهر والمربع آيات من القرآن وتاريخ الفراغ من بنائها ٠

وللأمير يشبك قبة أخرى بشـــارع العباسية تعرف بالقبة الفداوية نســـبة الى طائفة من بلاد الاسماعيليـــة يستهترون بالموت ٠ وقد أنشأ الأمير بجوارها مدرســـة وغرس حولها الحدائق ، فجعل هـــذه المنطقة احـــدى متنزهات القاهرة بعد أن كانت فضاء موحشـــا ٠ ومات الأمير يشبك بن مهدى قبل أن يتمها فأكملها السلطـــان قايتباى وكتب ألقابه فى طراز بدائر مربع القبة من الداخل كذلك كتب اسمه أيضـــا على الباب القبلى لهذه القبـــة الضخمة التى تسودها البساطة من الخارج ٠ وتنسب هذه القبة الى ما بين عامى ١٤٧٩ و ١٤٨١ ٠

الأمير البناء قجماس الاسحقى

هو الأمير سيف الدين قجماس الاسحقى الظاهرى ، كان مملوكا للظاهر جقمق ونشأ فى خدمته وعين فى جملة

وظائف آخرها وظيفة نائب الشـــــام فى دولة الأشرف قايتباى وبقى بها الى أن توفى سنة ٨٩٢ هـ (١٤٨٧) ودفن بالشام ٠

ومن مآثره مسجده بالدرب الأحمر الذى يعتبر من أهم مساجد دولة المـــماليك الجراكسة ٠ شيد على طراز المدارس المتعـــامد ، وبه ايوانان كبيران شرقى وغربى ، وايوانان صغيران شمالى وجنوبى ، يتوســـــطهما صحن مغطى بمنور ٠

ان داخل هذا المسجد ثروة فنية وصناعية ، قل أن يكون مثلها ها هى « صـــــنج » العقود وأعتاب الأبواب والجدران تزخر بالحليات والزخارف ٠٠٠ كسى جدار المحراب بوزرة من الرخام الى ارتفاع كبير يتوســـــطه المحراب وفى منتصفه ووسط الوزرة اسم صانعه بشكل زخرفى ونصه : « عمل عبد القادر النقاش » ، ويجاور المحراب المنبر المطعم بالعاج والابنوس ٠٠ وقبة المسجد شاهقة البناء بها قبر الشيخ أحمد أبو خريبة المتوفى سنة ١٢٦٨ هـ / ١٨٥٨ ، وبهذا الاسم عرف المسجد عند الشعب ٠

أبو بكر محمد بن مزهر

علامة من علماء عصر قايتباى ، ولد ســـنة ٨٣١ هـ (١٤٢٦ ـ ٢٧) بالقاهرة وتلقى العلم عن علماء القاهرة حتى حصل على أجازة التدريس والافتاء ، وولى الوظائف

الجليلة ، منها ناظر الاسطبل ثم أضيفت اليها وكالة بيت المال ثم ناظر الجيش ، ثم ولى كتابة السر (١٤٦١ / ٦٢) وبقى بهـــذا المنصب حتى سنة ١٤٨٧/٨٨ وهو ناظر ديوان الانشاء للسلطان قايتباى .

بنى مسجدا رائع العمارة بحارة برجوان ، تلك الحارة التى كان يقيم فيها مؤرخنا الجليل تقى الدين المقريزى . وقد تم بناء المسجد فيما بين ١٤٧٩ و ١٤٨٠ .

للمسجد واجهتان خاليتان من الزخارف (الشرقية والبحرية) ، أما بابه البحرى فعتبه منقوش نقشا جميلا ، ويعلو الباب الذى بالواجهة الشرقية مئذنة رشيقة من ثلاث دورات بها كثير من الزخارف التى جعلتها من أرشق مآذن مصر (١) . ومع أن الأرض التى أنشىء عليها هذا المسجد صغيرة المساحة وغير منتظمة الشكل الا أن براعة المهندس تغلبت على هــذه الصــعوبة وجاء تخطيطه بديعا للغاية . فالتخطيط الداخلى يخالف مساجد عصره ، فواجهة كل من الايوانين الشرقى والغربى محمولة على عمودين يحملان ثلاثة أقواس . أما الايوان البحرى والقبلى فصغيران ، ولعل مهندسه اقتبس هذه الفكرة من مسجد أصلم البهائى .

ويحفل المسجد من الداخل بشتى الفنون والصناعات الاسلامية : أعمال الرخام التى كسيت بهـــا جدران وزرة

---

(١) محمود أحمد : دليل موجز لاشهر آثار القــاهرة ، ص ١٦٩ — ١٧١ .

الايوان الشرقى ، المحراب من الرخام الدقيق ، الزجاج الملون وقد كتب الصانع اسمه بشكل زخرفى فى الشباك الشرقى البحرى وعلى يسار المحراب ونصه « عمل عبد القادر النقاش » ، ودكة المبلغ بألوانها ، والأسقف المموهة بالألوان والذهب ، وأعمال النجارة على قدر عظيم من الجمال والدقة ، تبدو فى الأبواب والخزانات والمنبر ، كذلك حشوات السن والأبنوس ، ورنك منشىء المسجد يمثل « محبرة » اشارة الى وظيفته وهى ناظر ديوان الانشاء ٠

ان كل ما فى هذا المسجد أنيق وجليل وجميل ، يدل على ما وصل اليه صناع مصر وفنانوها من الحذق والمهارة وحسن الذوق ٠

الأمير أزبك الخازندار اليوسفى

من أمراء عصر قايتباى وكان أولا من مماليك الظاهر جقمق ثم أعتق ، وعرف بأزبك الخازندار لأنه تولى منصب الخازندارية فى أول حياته الرسمية ٠ صار أميرا مقدما واختير لامارة ركب المحمل عام ٨٨٧ هـ (١٤٨٢) ، ثم عينه قايتباى رأس نوبة كبير عوضا عن تغرى بردى المتوفى ، ثم رأس حملة لتأديب الثائرين فى بلاد البحيرة (٨٩٨ هـ) فأدى مهمته وعاد ٠ وفى عام ٩٠١ هـ رقى الأمير أزبك الى أمير سلاح فأمير ألف ، ولكن ساءت علاقته بالسلطان قايتباى فنفاه ٠ ولما اعتلى قانصوه الغورى

العرش صـفا له الجو ، ثم توفى فى ٩٠٤ هـ (١٤٩٨) وكان أزبك قد بنى له مدرسة ومدفنا فدفن فيها .

شيد مدرسته بالقرب من بركة الفيل فى شارع سمى باسمه فى عام ٩٠٠ هـ (١٤٩٤ / ٩٥) وقـد نقش على مدخلها هذا التاريخ ولها طرقة مفروشة بالرخام ، وبدائرة صحنه من أعلى نقش فى الحجر آيات قرآنية وكتب بجدار الصحن القبلى : « أمر بانشاء هذه المدرسة المقر الأشرف الكريم العالى ... السـيفى أزبك أمير سر نواب النـوبة الملكى الأشرفى » .

الأمير أزبك بن ططخ الأتابكى

من أجلاء أمراء السلطان قايتباى وتقلد أتابكية الجيش (قيادته) بمصر حوالى ثلاثين سنة قام بواجباتها خير قيام وانتصر فى عدة معارك كما أخمد عدة فتن وثورات ، وكان فى خـلال تلك المدة ينوب عن السلطان فى مهـام كثيرة فصحبه في رحلة طويلة الى سورية للتفتيش عن الحصـون والحاميات وكان ذلك فى عام ٨٨٠ هـ (١٤٧٥) . وتوفى فى عصر السلطان قانصوه فى ٢٠ رمضان سنة ٩٠٤ هـ (١٤٩٨) بعد أن بنى مسـجدا عظيما بالقرب من بركة الأزبكية . والجدير بالذكر أن هذا الأمير هو الذى نهض بحى الأزبكية بعـد أن ردم بركة بطن البقرة وجعل منه متنزها شائقا ، يحدثنا عنه ابن اياس ، قال :

« كانت أرض الأزبكية خربة ممتلئة بكثب من الرماد ينبت بها بعض أشجار السنط والاثل وبها أضرحة بعض الأولياء . وتناولها بعض المصلحين بضروب من الاصلاح . فأجرى اليها الماء بوساطة خلجان تخرج من النيل ، وأنشأ بها المناظر والبساتين وماشابه ذلك ثم عفى الزمان أثرها وعادت الى خرابها وتناقص عمرانها ، وما زال هذا أمرها حتى سكن الأتباكى « أزبك » على مقربة منها ، ولم تكن أرضها ملكا له وانما كانت من أملاك الدولة وما يخرج منها من ثمار يعود على الناس ، ولكن الأتابكى أزبك رأى أن يجرى اليها أسباب الحياة ويمد لها ضروب العمران فأنفق عليها نحوا من مائتى ألف دينار ، فمهد أرضها وأنشأ مناخا لجماله ثم حفر بركة وجمل شواطئها وأجرى اليها الماء بوساطة الخلجان وبنى فوقها القناطر ونشر حولها المقاعد واحاطها بالبساتين وشاد العمائر والربوع والحمامات والقاعات والطواحين والأفران ، وضروبا كثيرة من مرافق الحياة حتى غدت الأزبكية أحد منازه القاهرة ، وتكسر سدود خلجانها كل عام فى حفل ، يحضره الأمراء والأعيان ، ويجتمع فيه الناس للمشاهدة واللهو والسمر ، ومما أنشأه فيها مسجد كبير . وقد وهب السلطان أرض هذه الأزبكية للأتابكى أزبك بعد تمام هذه الجهود فى انشائها (ابن اياس : جـ ٢) .

ومن بنائى القاهرة فى أخريات القرن الخامس عشر : الأمير ماماى صاحب المقعد الجميل (لوجيا) فى بيت

القاضى (١٤٩٦) ، ويعقأوب شاه المهمندار وقبته معروفة فى سفح المقطم (١٤٩٥ / ٩٦) ، وقانصوه أبو سعيد ، والأمير خاير بك ومسجده بالتبانة (١٥٠٢) ، والأمير قانى باى أمير أخور ومدرسته تطل على ميدان صلاح الدين (١٥٠٣ / ٤) وهى تنسـجم وتتلاءم مع ما جاورها من العمائر الجميلة ، وقبتهـا من أجمل القباب الجركسـية حليت نواصيها بعمد حجرية منقوشة كما نقش سطحها بزخارف مورقة جميلة وبرقبتها كتابات رائعة فى الحسن ، ومئذنتها ذات رأسين ، ربما تكون الأولى من مثيلاتها فى القاهرة ٠

السلطان البناء قانصوه الغورى

هو آخر سلاطين المماليك البنائين ٠

حكم هذا السلطان المسن فيمـا بين عامى ١٥٠١ و ١٥١٦ حينما سقط شهيدا فى معركة مرج دابق وهو يقاتل جيش العثمانيين ٠ كان حاكما قوى الارادة وقضى على العسف الذى عم القـاهرة ، ثم زاد الضرائب دفعة واحدة لينفق ما يجمعه على الجيش والاصلاحات والمبانى العامة التى غمر بها القاهرة ٠

يقابلنا فى طليعة مابناه الغورى المدفن الذى لم يدفن فيه والخانقاه والمكتب والمقعد ، وتقع هـذه المجموعة على رأس تقاطع شارع الغورية بشارع الازهر ، ولها واجهتان

رائعتان احداهما غربية مشرفة على شارع الغورية والثانية بحرية مطلة على شارع الازهر ، وقد شيد السلطان هذه المجموعة فيما بين عامى ١٥٠٣ و ١٥٠٤ ٠

ويقابل هذه المجموعة : مسجد الغورى الذى شيده فى عام ١٥٠٤ على الطراز المتعامد ، ويتوصل اليه من سلم يؤدى الى مدخل يشبه مدخل المجموعة الأولى ٠ ويؤدى الى دركاة جميلة مفتوح فى جانبيها القبلى باب يوصل الى طرقة تؤدى الى صحن المسجد الذى يشتمل على أربعة أيوانات أكبرها الايوان الشرقى ، وهذه الايوانات مغطاة بسقف جميل ذى نقوش مموهةبالذهب ، وللصحن منور مستطيل وأرضية الصحن والايوانات مفروشة بالرخـــام المختلف الألوان البديع الصنع ، وبالطرف القبلى للواجهة تنهض المئذنة المربعـــة المنتهيـــة بدورة مكونة من أربعة رءوس وكانت مكسوة بالقاشانى الأزرق ٠ وشيد الغورى وكالة عظيمة ما زالت قائمة الى اليوم وتعرف باسمه ، كما أنه جدد قناطر المياه (١٥٠٦/١٥٠٨) المؤدية من فم الخليج الى قلعة الجبل ٠

والى السلطان الغورى تنسب بضعة أرباع فى خان الخليلى ، كما أنه بنى عند باب القنطرة ربعين ودكاكين ، وأمر بانشاء ميدان فسيح تحت القلعة وجلب اليه الأشجار من الشام وأجرى اليه الماء من السواقى ، وأنشـــأ به المناظر والمقعد وأقام مسجدا خلف الميدان المذكور ، وجدد

كثيرا من مبانى القلعة كالدهيشة وقاعات البيسرية والأعمدة وبنى المقعد الذى بالحوش . كما بنى سوقا للرقيق بالقرب من خان الخليلى . وجدد السلطان الغورى عمارة مقياس الروضة وبنى به قصرا ومقعدا مطلا على النيل ، وجدد عمارة قناطر السباع بالسيدة زينب .

وهكذا ينهض اسم قانصوه الغورى بين بناة القاهرة بكل حق . وبتلك الاعمال الجليلة نختتم مبانى المماليك الجراكسة ، الا اذا أضفنا اليها قبة قرقماس (١٥١١) وقبة بيبرس الخياط (١٥١٥) ومنارة مسجد أزدمر .

عبد الرحمن كتخدا أمير البنائين فى العصر العثمانى

وهذا بناء عظيم عالى الهمة فى أيام العثمانيين ، يعتبر فى مقدمة الساعين فى تجميل القاهرة وترصيعها بمبانيه . كان صاحب نفوذ قبل أيام على بك الكبير ، وقد ورث عبد الرحمن ميوله الفنية عن أبيه الذى استطاع أن يشيد مما جمعه من ثورة ـ مدرسة ومسجدا وسبيلا بالقرب من بركة الأزبكية ، وفى يوم افتتاحها ملأ حوضا كبيرا وكل ما وصلت اليه يده من الأوانى بالشراب المحلى بالسكر ليسقى الأهالى . وبنى منشئات خيرية أخرى .

كان الأمير عبد الرحمن كتخدا مصر (محافظا لها) فى عام ١٧٤٤ وقد عشق البناء ، فأنشأ وجدد كثيرا من

المساجد والأسبلة والاضرحة . وقد اشتهر عبد الرحمن بما أدخله من زيادات فى الجانب الشرقى من الأزهر ، ومن بينها ضريحه الخاص وجزء من المدخل وخمسون عمودا من رواق القبلة ومنبر ومحراب جديدان وشـيد مئذنتين وبابى الشوربة والصعايدة .

جمع عبد الرحمن كتخدا فى أكثر مبانيه بين الجمال والفن ، ويتجلى ذلك فى سبيله الرائع الواقع عند ملتقى شارعى النحاسين والجمالية والمعروف باسمه حتى اليوم . ولهذا السبيل ثلاث واجهات بها ثلاث فتحات عقودها من الرخام الملون و « تواشيحها » من الرخام الدقيق موضوع عليها شبابيك نحاسية ، ويعلو السبيل كتاب ذو مظلات وحواجز من خشب الخرط . ويتضمن السبيل كتابات تحتوى على اسـم المنشىء وتاريخ الانشاء (١١٥٧ هـ / ١٧٤٤) أما حجرة السبيل فقد غشيت جدرانها بالقاشانى، وعلى جزء من جداره الشرقى رسم صورة الكعبة الشريفة . وأنشأ الأمير عبد الرحمن عند باب الفتوح مسجدا وصهريجا وكتابا ، وفى مدخل الأزهر أعاد بناء المدرسـة الطبرسية وجعلها مع مدرسة الآقبغاوية المقابلة لها من داخل الباب الكبير من أحسن المبانى فخامة وبهاء ، كما أنه بنى المشهد الحسينى ، وأنشـأ عند باب البرقية المعروف بالغريب مسجدا وصهريجا وحوضا وسقاية ومكتبا ، وشيد مسجدا بجهة الأزبكية ومكتبا وحوضا . وبنى مشـهد السـيدة

زينب ، ومشهد السيدة سكينة والمشهد المعروف بالسيدة عائشة بالقرب من باب القرافة ، والسيدة فاطمة والسيدة رقية ، وعمر المدرسة السيوفية كما جدد المارستان المنصورى وغير ذلك من المساجد والأسبلة .

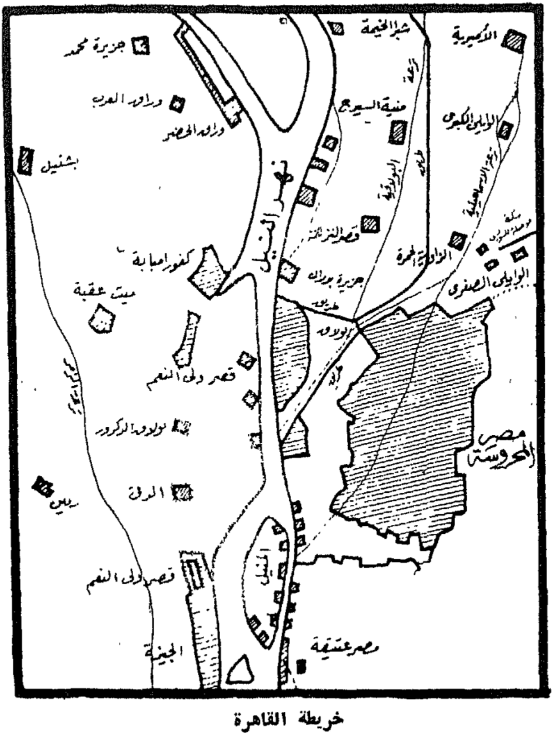
ومن أجمل عمائره ـ دار سكنه بحارة عابدين وكانت من الدور العظيمة المحكمة الاتقان والبناء ، لم تماثلها دار بمصر فى حسنها وزخرف مجالسها وبابها من النقوش والرخام والقاشانى ، وغرس بها بستانا بديعا بداخله قاعة متسعة بوسطها نافورة مفروشة بالرخام . وموجز القول أن عدد المساجد التى بناها أو جددها عبد الرحمن كتخدا بلغ ثمانية عشر مسجدا ، يضاف اليها الزوايا والأسبلة والسقايات والمكاتب والقناطر .. الخ .

عظم شأن عبد الرحمن حتى استفحل أمر على بك الكبير ، فأخرجه منفيا الى الحجاز وذلك فى أول ذى القعدة عام ١١٧٨ هـ (١٧٦٤) فأقام بالحجاز اثنتى عشرة سنة حتى أحضره يوسف بك أمير الحج فى عام ١١٩٠ هـ (١٧٧٦) بعد أن استولى عليه الهرم ، فدخل الى بيته مريضا ، فأقام فيه أحد عشر يوما ثم مات ، ودفن بالمدفن الذى أعده لجثمانه بجوار باب الصعايدة بالأزهر .

***

بناة القاهرة الحديثة

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر ، أخذت القاهرة تنهض من كبوتها وتزيل آثار ما أصابها فى أثناء الاحتلالين العثمانى والفرنسى ، وبدأ البناة الأكفاء من أبنائها المعماريين والمهندسين يطورون تخطيط المدينة ويعملون بكل ما فى طاقتهم على تقدمها على الأسلوب المدنى الحديث وذلك لكى تلحق موكب الحضارة العالمية الحديثة . فأزالوا الخرائب والأنقاض وردموا ما تبقى فى ساحاتها من البرك والمستنقعات ونقلوا المقابر المبعثرة فى جميع أحيائها ، ومدوا الطرق الفسيحة ، وأقاموا المستشفيات الجديدة ، وغرسوا الحدائق والبساتين ، وشيدوا القناطر عبر النيل ، وبنوا الجامعات الحديثة ، والوزارات . وباختصار قدموا للقاهرة أحدث أساليب التخطيط الحديث فى الأحياء



خريطة القاهرة

والضواحى التى أنشئوها فى المعادى ومصر الجديدة والدقى ومدينة نصر .. مما نشاهده أمامنا اليوم فى مدينتنا الخالدة .

ونرجو أن نواصل الجهود فى الحفاظ على مبانينا التاريخية القديمة ، ونعمل على صيانتها من كل ما يصيبها فهى معالم القاهرة الألفية ومن مقومات شخصيتها الجليلة .

الفصل الرابع

رجال العمارة وهندسة البناء في القاهرة

في شهر نوفمبر عام ١٣٨٢ حظيت القاهرة بقدوم المؤرخ والفيلسوف التونسي عبد الرحمن بن خلدون ، فبهرته عظمتها وجمال عمارتها ، ونراه يسجل انطباعه عنها في ذكرياته ، قائلا :

« انتقلت الى القاهرة أول ذى القعدة عام ٧٨٤ هـ (١٣٨٢) ، فرأيت حاضرة الدنيا ، وبستان العالم ، ومحشر الأمم ، ومدرج الذر من البشر ، وايوان الاسلام ، وكرسي الملك ، تلوح القصور والأواوين في جوه ، وتزهر الخوانك والمدارس بآفاقه ، وتضيء البدور والكواكب من عليائه ٠ وقد مثل بشاطيء بحر النيل نهر الجنة ، وموقع مياه السماء يسقيهم النهل والعلل سيحه ، ويجبى اليهم الثمرات والخيرات ثجة ، ومررت في سكك المدينة تغص بزحام المارة ، وأسواقها تزخر بالنعم ٠٠٠ ثم ختم حديثه

قائلا : « ومن لم يرها (يقصـــد القاهرة) لم يعـرف عز الاسلام » (١) ٠

اســتقر ابن خلدون فى القـاهرة ما يقرب من ربع القرن حتى توفاه الله فى سنة ١٤٠٦ بعد أن شــغل عدة مناصب دينية وعلمية كبرى ، كان من أهمهـا منـاصب القضاء ٠

عاصر ابن خلدون فى مصر زميل ومؤرخ نعرفه حق المعرفة ، وهو العلامة أحمد بن على المقريزى (١٣٦٤ ـ ١٤٤١) الذى وصف لنا القـاهرة وعمائرهـا وأخطاطها وأمدنا بتاريخ واف عن هذه المدينة الجليلة ، حينما تناثرت فيها المســاجد والأضرحة والدور والقصـور والمدارس والحمامات والوكالات والأسواق ، وكل منها يحكى قصة تاريخية جليلة عن منشئها ومهندسها ، وجمال عمارتها ٠ وموجز القول ، فقد كانت القاهرة فى تلك الأيام (القرن الخامس عشر) مدينة رائعة الجمال فخمة البناء ترصعها العمائر الرائعة فى كل حى من أحيائها التليدة ٠٠ كانت جميع المبانى العتيقة التى نمر بهـا اليوم ، كمدرســة السلطان حسن وقصور الأمير ماماى ويشـبك وبشـتك وخانقاه فرح بن برقوق ، وعمائر الناصر محمد بن قلاوون وأبيه ، كانت جميعها فى قمة مجدها حينذاك !

(١) عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢ هـ ـ ٨٠٨) : التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا ، حققه الاستاذ محمد بن تاويت الطنجى لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥١ ٠

تلك هى القاهرة التى نمجد ذكراها ، المدينة الألفية التى تفخر بأزهرها الجليل على مر الزمن • القاهرة التى احتوت على مئات من الكنوز الأثرية التى تحكى تاريخها خلال ألف سنة •• وكأنها موسوعة معمارية ، تصف طراز كل عصر وأسلوب كل زمن فى فن البناء والزخرفة والنقش : مآذن وقباب ومحاريب وأضرحة وأسبلة نشاهدها فى تطور معمارى منسجم وكأننا فى متحف يوضح تطور أساليب العمارة التى امتازت بها القاهرة •

مرت بنا اسماء جميع الحكام الذين أسهموا فى بناء عمائر القاهرة ولا سيما السلاطين المماليك وأمراؤهم ممن أقاموا المدارس والمساجد والخوانق والمدافن التى تميزت بالتأنق فى مآذنها وفى قبابها • وقد جهل معظم هؤلاء روح الاسلام، فحسبوا هذا الدين السمح مظاهرمن بناء مساجد ومدارس ومستشفيات وخوانق ومشاركة فى صلوات عامة لا تنهاهم عن فحشاء ولا تردعهم عن منكر (١) • وعلى أية حال فقد كان لهؤلاء المماليك مزايا أخرى ، فى طليعتها الجهاد المسلح فى سبيل تحرير الأراضى الاسلامية من الصليبيين المعتدين وقد ظفروا ، والحق يقال •

فمن هم أولئك الرجال من مهندسين ومعماريين

---

(١) محمد الصادق حسين : البيت السبكى بيت علم في دولتى المماليك ، ص ٢٧ ، دار الكاتب المصرى ، القاهرة ١٩٤٨ .

وبنائين وزخرفيين أصحاب الفضل الأول فى بناء القاهرة وتشييد مبانيها الجليلة ؟؟

لا شك أن هناك أسماء لا يمكن بأية حال من الأحوال أن نجعلها وهى أسماء القائد جوهر الصقلى بانى القاهرة والأزهر والقصر الكبير الشرقى ، وهناك سيده المعز لدين الله وابنه العزيز بدين الله الذى يعزى اليه بناء جامع الحاكم بأمر الله وان لم يكمله ، وهناك أيضا القـائد الحازم بدر الدين الجمالى الذى أعاد بناء أهم بوابات القاهـــرة من الحجارة بدلا عن اللبن ، وكذلك ابنه الأفضل • ولن ننسى أيضا صلاح الدين الأيوبى وقائده قراقوش الذى شـــيد أمجد بناء مازال شامخا فوق المقطم وهو قلعة الجبل المعروفة بقلعة صـــلاح الدين • والى جانب أولئك الرواد الذين صنعوا القاهرة ، توجد طائفة تدين المدينة الكبرى لهم لما شيدوه فيها من المبانى الرائعة •

ففى النصف الأول من القرن التاسع شيد أبو بكر البناء (١) لأحمد بن طولون عدة مبان ، وفى فلسطين شيد حصنا منيعا فى عكا • كما وصل الينا اسم المهندس ابراهيم ابن غنائم بن سعيد الذى بنى القصر الأبلق بالقلعة وضريح السلطان الظاهر بيبرس بدمشق عام ١٢٧٧ (٦٧٦ هـ) ولا يزال اسمه منقوشا على باب هذا الضريح ويعرف اليوم بالمدرسة الظاهرية •

---

(١) يظن ان ابن الرومية هو الذى بنى فوارة مسجد أحمد بن طولون عام ٣٨٥ هـ (٩٩٥) بأمر الخليفة العزيز بالله •

ابن السيوفى :

فاذا انتقلنا الى عصر دولة المماليك الأولى وهو عصر البناء ، ولا سيما فى أيام أسرة قلاون ، يقابلنا ابن السيوفى فى طليعة مهندسى الناصر محمد بن قلاوون . ذكره المقريزى فى خططه عند كلامه على مدرسة الأمير عبد الواحد أقبغا الكائنة على ميسرة الداخل الى الأزهر من بابه الرئيسى المعروف بباب المزينين وهى الآن مقر المكتبة الأزهرية وكان ذلك فى سنة ٧٤٠ هـ (١٣٣٩/٤٠) . وقد شيد ابن السيوفى مسجد الطنبغا الماردينى وهو تحفة رائعة فى الدرب الاحمر ، كما بنى مئذنته أيضا .

شهاب الدين احمد بن احمد محمد الطولونى :

عاش فى القاهرة وبنى مدرسة وخانقاه الظاهر برقوق عام ٧٨٨ هـ (١٣٨٦) . كانت له خطوة كبرى عند السلطان ، فرقاه الى رتبة الخاصكية ثم منحه لقب أمير عشرة . وفى سنة ٧٩٤ هـ (١٣٩١/٢) تزوج برقوق من ابنته . ثم أوفده عدة مرات الى مكة لاصلاح مسجد الحرم وبعد فراغه من العمارة فى آخر المرات توفى وكان ذلك فى ١٠ صفر ٨٠٢ هـ (١٣٩٩) (١) .

ومن مهندسى العصر المملوكى ، البارزين : المهندس

(١) الضوء اللامع للسخاوى : جـ ١ ص ٢٢١ انظر ايضا جـ ٦ ص ٢٠٨ .

أبجيج الذى أشرف على بناء قاعة الدهيشة التى كانت تطل على الحوش بقلعة الجبل وقد عمرها السلطان الصالح اسماعيل بن محمد بن قلاوون سنة ٧٤٥ هـ (١٣٤٤) ، وأبو بكر المعروف بابن قيسون ، وأحمد بن على المهندس المعروف بابن الرسول ، وابراهيم بن عبد الله بن يوسف• وهناك المهندس محمد بن بيليك المحسنى مهندس مدرسة السلطان حسن ، وهو واحد من أسرة اشتهر بعض أفرادها بهندسة البناء ، ويعتبر عمله الشامخ هذا من أعظم العمائر الاسلامية فى العالم •

ومن أشهر مهندسى دولة المماليك الثانية (الشراكسة) :

على بن محمد بن أحمد المعروف بأبى الحسن •

ابراهيم بن عبد الله المهندس •

اسماعيل بن على بن محمد المهندس المعروف بابن الفقيه •

على بن محمد بن عبد القادر المهندس المعروف بابن الصياد •

* والمهندس محمد بن القزاز الذى شيد منارتى مسجد المؤيد شيخ الملاصق لباب زويلة (٨٢٢ هـ ــ ١٤١٩) وقد انتهز ابن القزاز وجود هذا الباب العظيم لصق المسجد فاتخذ من بدنتيه قاعدتين لمنارتيه ، وكان موفقا حقا •

وهما منارتان رشيقتان لكل منهما ثلاث دورات حليت بالكتابات والنقوش،وتقوم الدورة الثالثة علىعمد رشيقة، وكتب على المئذنة الشرقية : « عمل هذه المأذنة المباركة العبد الفقير الى الله تعالى محمد بن القزاز وكان الفراغ ول رجب سنة اثنتين وعشرين وثمان مائة » · وكذلك نقش على المئذنة الغربية كتابة بهذا المعنى وتاريخها ثلاثوعشرين وثمان مائة ·

حسن بن حسين الطولونى :

ولد بالقاهرة فى عام ٨٣٦ هـ (١٤٣٢/٣٣) ونشأ فىأسرة من رجال العمارة ، وتلقى العلم على السخاوى المؤرخ المصرى الذى أثنى عليه كثيرا · تقدم فى عمله حتى نال حظوة السلطان أينال وفى ربيع الأول عام ٨٥٧ هـ (١٤٥٣) عينه « معلم المعلمين » ومعلم المعمارية · شيد ضريح خشقدم بالقاهرة ومنحه خلعة الشرف فى ٩ ربيع ثان عام ٨٦٦ هـ (١٤٦٢) حينما زاره السلطان فى أثناء قيامه بالعمل ، بيد أنه استغنى عنه بعد زمن وعين مكانه بدر الدين حسن الطنامى عام ٨٦٩ هـ (١٤٦٤/٥) ثم استدعاه ثانية ورفت مرة أخرى ! (١)

وفى شوالعام ٨٧٤ (١٤٧٠) تولى المنصب بدر الدين

Mayer, L.A. : Islamic Architects and their Works, Genève, 1956.

محمد بن الكويز (وسنتكلم عنه) ويبدو أنه اســتعاد منصبه بدليل ان السلطان ندبه للقيام باصلاحات فيمسجد القلعة وتوسيع صهريج الميـــاه الخاص بالفوارة ٠ وكان يقوم بالعمل في صفر عام ٨٨٦ هـ (١٤٨١) ٠ وفيما بين ربيع الثاني من العام المذكور وشهر رجب٨٩٦ (١٤٨١ ـ ١٤٩١) قام باصلاح جامع جزيرة الرمضة وبناء طواحين المياه (النواعير) بالقاهرة ٠٠٠ وكانت تعتبر من مشاهد القاهرة ، وربما أصـــلح ابن الطولوني حينذاك مقيـاس النيل ٠ وفي عام ٨٩٢ أصلح قنطرة أبي المنجا ، ثم أدى فريضة الحج في عام ٨٩٨ هـ (١٤٩٣) ٠ ومن المحقق أنه كان رئيسا للمعلمين في عام ٩٠٨ هـ (١٥٠٢/٣) ، وتوفاه الله بعد تأديته فريضة الحج عام ٩٢٣ هـ (١٥١٧) وكان ابنه شهاب الدين أحمد خلفه رئيسا للمعلمين لما فقد والده بصره ٠ وقد ذكر اســمه بين أعيان الصناع الذين رحلوا الى الأستانة عام ١٥١٧ بعد فتح العثمانيين لمصر ٠

بدر الدين محمد بن الكويز :

من معماريي عصر السلطان الأشرف قايتباي ٠ عينه في ٨ شوال ٨٧٤ هـ (١٤٧٠) « معلم المعلمين » بدلا عن حسن الطولوني ٠ في ذي الحجة من عام ٨٧٥ هـ (١٤٧١) بدأ باصلاح الايوان الكبير في قلعة الجبل ٠ وكان القاضي أبو بكر محمد بن مزهر كاتب سر الســلطان قايتباي هو المشرف على هذا العمل وقد أنفق عليـــه حوالي ٢٠٠٠٠

دينار . وفى شعبان ٨٨٣ هـ (١٤٧٨) عين ناظر الخاص (الأعمال الخاصة بالسلطان) . وتوفى ابن الكويز فى شعبان ٨٨٥ هـ (١٤٨٠) وهو فى الثامنة والخمسين .

*** ومن مهندس عصر قايتباى أيضا :**

المعلم ابراهيم الشهير بالسكرى (١) .

عبد الله ابن شعبان بن سليمان المهندس .

أحمد بن محمد بن أحمد المشهور بابن العظمة .

المعلم محمد بن أحمد بن على النشادرى المعروف بابن سبيع ، ولعله كان من المهندسين الذين كلفهم الأتابكى أزبك بن ططخ باقامة مسجده ودوره الجليلة فى الأزبكية ، وكان لهذا المهندس الثرى معمل لصنع النشادر بخط باب اللوق (٢) .

*** ومن مهندسى عصر السلطان قانصوه الغورى :**

المعلم الشمسى محمد بن المعلم المحيوى عبد القادر ابن الصياد .

أحمد بن على بن أحمد المعروف بالسحراوى .

---

(١) وثيقة قايتباى أوقاف ٨١٠ .

(٢) وثيقة أزبك بن ططخ محكمة ١٩٨ . أنظر أيضا . د. عبد اللطيف ابراهيم : سلسلة الدراسات الوثائقية ، ص ٨٠ – ٨١.

يوسف ابراهيم بن عبـد الله المعروف بمهندس باب السلسلة بالقلعة .

ونضيف الى هؤلاء الأجلاء بعض مشاهير المعماريين فى العصر الحديث ، وعلى رأسـهم على لبيب جبر ، ومحمود رياض ، ورمزى عمر ، وسـيد كريم ، وأنطون نحاس ، ومحمد شريف نعمان ، ومحمود فكرى عبد الخالق ،وفوزى حسنين ، وأبو بكر خيرت ، واسـكندر كليمـاندوس ، وشارل عيروط ، وعلى نصـار وغيرهم من سادة المعماريين المعاصرين ..

وهؤلاء المهندسون الذين شيدوا القـاهرة وجملوها بالعمائر التى نشاهد بعضهـا الى اليوم يعوزهم طوائف النحاتين والبنائين والمرخمين والنجارين وغيرهم من أصحاب المهن والحرف الأخرى . ومما يؤسف له انه لم يصلنا أسماء الكثير منهم . فمن البنائين والنحاتين : حاتم البنا وابنه من بنائى الفاطميين ، وأسرة المعـلم يونس البرلسى وقد أسهمت فى بناء مسجد أحمد البجم بأبيار سنة ١٠٤١ هـ (١٦٣١) . ومن المرخمين محمد بن أحمد وأحمـد زغلش الشامى وقد كتبا اسميهما على جانبى باب قصر قوصون (ح ١٣٣٨ م) وهو باب جميل لاشتماله على مقرنصات وكتابات دقيقة ، وعبد القادر النقاش الذى قام بنقش رخام مدرستين من أفخم مدارس دولة المماليك الشراكسة وهما مدرستا قجماس الاسـحقى وأبى بكر مزهر ، وقد كتب

اسمه فى مسـجد قجماس المنشـــا سنة ٨٨٥/٨٨٦ هـ (١٤٨٠ / ٨١) فى دائرة زخرفية بتجويفة المحراب طردا وعكسا بما نصه «عمل عبد القادر النقاش» ، وكتبه بشكل زخرفى آخر فى خواصر العقود ، وكذلك كتب اسمه فى خواصر عقود المدرسة المزهرية ، وفى جحور الشبابيك(١)٠ وهناك أيضا المرخم على بولاقى الذى نقش اسمه على شاهد قبر اسماعيل بك دفتردار مصر (ت ١١٣٣ هـ/١٧٢٠) ٠

ومن النجارين وقد وصل الينا أسماء كثيرة منهم ، نذكر : محمد بن عينو أحد نجارى جامع ابن طولون وقد كتب اسمه بالكوفية على ظهر ألواح الازار الكوفى وعلى بعض أجزاء السقف ٠ وعبيد النجار المعروف بابن معالى وهو الذى صنع تابوت الامام الشـــافعى سنة ٥٧٤ هـ (١١٧٨) فى أيام صـــلاح الدين وهو تحفة بديعة جدا ويعتبر من ارقى نماذج أعمال النجارة والحفر فى الخشب، وقد كتب الصانع اسمه فى الطرف العلوى للغطاء الهرمى وبخط صغير ، والنجار أحمد بن عيسى بن أحمد الذى صنع منبر مدرسة أبى بكر مزهر بحارة برجوان التى بنيت فى سنة ٨٨٤ هـ (١٤٧٩) وله منبر آخر فى جامع الغمرى، والنجار على بن طنين صانع منبر مسجد أبى العلاء الذى

---

(١) حسن عبد الوهاب : توقيعات الصـــناع على آثار مصر الاسلامية . مقال لنشر فى مجـــلة المجمع المصرى ، جـ ٣٦ (١٩٥٣ — ١٩٥٤) ٠

شيد حوالى سنة ٨٩٠ هـ (١٤٨٥) وهو منبر تميز بتقاسيم ريشتى جانبيه ويعتبر مثالا كاملا لأعمال النجارة فى دولة المماليك الشراكسة .

أما المكفتون والنحاسون فكثيرون وقد وصلت الينا طائفة من أعمالهم الفنية المحفوظة فى متاحف العالم ، ومنهم أحمد بن باره الموصلى الأصل الذى صنع صندوقا للربعة الشريفة ، مكفتا بالذهب والفضة باسم الناصر محمد ابن قلاوون فى سنة ٧٢٣ (١٣٢٣) ، وهو الآن مودع بمكتبة الجامع الأزهر ، وبدر بن أبى يعلا صانع الثريا الكبيرة الموجودة فى متحف الفن الاسلامى وهى من النحاس الأصفر ومكونة من خمس طبقات وهى باسم الأمير قوصون مؤرخة سنة ٧٣٠ هـ (١٣٣٠) .

المراجع

ابن أبى أصيبعة : عيون الانباء فى طبقات الأطباء .

ابن الاكفانى ، محمد : نخب الذخـــائر فى أحوال الجواهر ، تحقيق الأب أنستاس الكرملى ، القاهرة ١٩٣٩.

د. أحمد عيسى : معجم الأطباء ، القاهرة، ١٣٦١ هـ/ ١٩٤٢ .

د . بول غليونجى : ابن النفيس ، سلســلة كتب أعلام العرب رقم ٥٧ ،/القاهرة ١٩٦٧ .

جورجى زيدان : تاريخ التمدن الاســلامى ، خمسة أجزاء ، القاهرة .

د . زكى محمد حسن : فنون الاسلام ، القاهرة ، ١٩٤٨ .

د . زكى محمد حسن : مصر والحضارة الاسلامية، سلسلة الثقافة العسكرية .

السخاوى : الضوء اللامع فى أعلام القرن التاسع ، القاهرة .

د . سيدة اسماعيل كاشــف بالاشــتراك مع

د • حسن أحمد محمـــود : مصر فى عصر إلطولونيين والاخشيديين القاهرة ، ١٩٦٠ •

السيوطى ، جلال الدين : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة •

عبد الرحمن زكي : تراث مصر فى الحضارة الاسلامية القاهرة ١٩٥١ •

عبد إلرحمن زكى : القاهرة من جوهر الى الجبرتى ، القاهرة ١٩٦٥ •

عبد الرحمن زكى : موســوعة مدينة القــاهرة ، القاهرة ١٩٦٩ •

د • عبد اللطيف ابراهيم : دراســـات فى الكتب والمكتبات الاسلامية ، القاهرة •

على مبارك باشا : الخطط التوفيقية الجديدة ، القاهرة ١٨٩٢ •

قدرى حافظ طوقان : تراث العرب العـــلمى فى الرياضيات والفلك ، القاهرة •

القفطى ، جمال الدين : أخبـــار العلماء بأخبـــار الحكماء ، مطبعة السعادة •

القلقشندى : صبح الأعشى ، القاهرة •

محمد عبد الله عنان : الحـــــاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ، القاهرة .

المقريزى : المواعظ والاعتبـــار فى ذكرى الخطـط والآثار . القاهرة .

ميبلى ، ألدو : العـــلم عند العرب وأثره فى تطور العلم العالمى ، دار القلم ١٩٦٢ دائرة المعارف الاسلامية ، القاهرة .

مجلة الجمعية المصرية للتاريخ العلوم ، القاهرة .

الموسوعة العربية الميسرة ، القاهرة ، ١٩٦٤ ـ مجلة المقتطف .

Glanville (Editor) Legacy of Egypt. Oxford 1947

Meyer half, max : Climate and Health in Old Cairo, according to Ali Ibn Radwan, Cairo, December 1928.

Partington, J.R. : A History of Greets fire and Gynpowder, Cambridge.

Sarton : Introduction to the History of Science, 3 vols.

Sbath, Paul : Catalogue de manuscrits arabes, 3 parts.

مطبعة الشرق القاهرة ١٩٣٨ ـ ١٩٤٠ .

: Deux traités médicaux édités et traduits par P. Sbath et chr. Avierinos, Inst. F.A.O., Le Caire, 1953.

فهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٦/١٧٧٩

ISBN ٩٧٧ - ٠١ - ٠٨٧٧ - ٤